رجل الإيمان والتجديد
في وجه العلمانية والتقليد

بديع الزمان سعيد النورسي

- الترقيم الدولى: 977-5323-55-X
- رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٤٩٧٠
- الطبعة الأولى (٢٠٠٣)

- الناشر: شركة سوزلر للنشر
- العنوان : ٣٠ شارع جعفر الصادق – الحى السابع

مدينة نصر – القاهرة – جمهورية مصر العربية

تليفون : +(٢٠٢)٢٦٠٢٩٣٨

تليفاكس : +(٢٠٢)٢٦٣٠٥٣١

30 Gafar EL-Sadek St., 7th Nasr City

Cairo-Egypt.

Tel. : +202 2602938

Telefax : +202 2630531

http://www.sozler.com.tr

دراسات في رسائل النور

رجل الإيمان والتجديد في وجه العلمانية والتقليد

بديع الزمان سعيد النورسي

تأليف

الأستاذ الدكتور

عبد الحليم عويس

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

رجل الإيمان في وجه العلمانية والإلحاد

ليس يعنينا- ونحن نتحدث عن النورسي- أن نكتب تاريخ حياته على النسق المعروف في كتابه التراجم، وإنما الذي يعنينا أن نرصد مراحل جهاده، وأطوار فكره، وتطور وسائله الدعوية، ومواقفه الفكرية ؛ لنقدم ملخصا لجهاده، في مواجهة أكبر كارثة واجهها المسلمون في القرن العشرين، وهى كارثة سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ م، بواسطة رجال اليهودية والصليبية، وما تبع هذا السقوط من تحول تركيا عن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، ومن دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية إلى دولة تتبجح بالعلمانية، وتُحكَمُ بالقوانين الوضعية، وحتى الآذان للصلاة قرر تحريمه باللغة العربية، وحُول المساجد إلى إسطبلات واستراحات للجنود، وأرغم الناس على لبس القبعة ونزع الطربوش، وأعُدم العلماء والدعاة أفرادا وجماعات، وقطع صلات تركيا- فعلياً- بالعالم الإسلامي، ولم تبق إلا الصلة الدبلوماسية الشكلية، وأمر بتزييف التاريخ العثمانية، الذي كانت مساحة الخلافة العثمانية في معظمه تقترب من خمسة عشر مليون كيلو متر، فانحسرت المساحة في عهد (البطل أتاتورك !!) إلى مليون كيلو متر!!

ومع كل ذلك صدرت القرارات التي تأمر بستر التاريخ الملوث والخياني، وتحاكم على كشف أيَ صورة من صور خيانته وانحرافاته، وصودر حق البحث العلمي، ومُنع الباحثون من الحصول على الوثائق المتصلة به، حتى بعد مرور خمسين سنة على تاريخها، حسبما تمليه القوانين الدولية. وكان ذلك- بالطبع- انطلاقا من أن تاريخه، لو عُرف على حقيقته، لكشف للناس عن موسوعة من المخازي والفضائح، لا حصر لصفحاتها !!!

لقد واجه بديع الزمان سعيد النورسيّ هذه الغارة (الكارثة) بمقدماتها، ثم بمراحلها المختلفة ... وحتى وفاة أتاتورك نفسه، وقد عاش نحو خمسين سنة، منذ العقد الأول من القرن العشرين، أي منذ بدأ التخطيط الصهيوني الصليبي لإسقاط الخلافة العثمانية يدخل مرحلة التنفيذ، وهذه السنوات أو العقود تمثل عصر الشدة العظمى في المحنة الكمالية العلمانية، التي مازالت قائمة حتى اليوم.

ولئن كان سعيد النورسي قد ولد سنة ١٨٧٣م فقد عاش منها حياة طلب علم حقيقي نحو ثلاثة عقود، وحتى ظهرت للعيان مؤامرة إسقاط الخلافة، وهيمنة العلمانية الصهيونية في تركيا، فسرعان ما جنّد النورسي نفسه، وبرمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد الكمالي،الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مُسلحاً بالمكر والتآمر ،والانحلال، والانحلال الأخلاقي، وبتحريف الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ، الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠م حين وافته المنية، عاش سعيد النورسي يجاهد بقلمه وجهوده التربوية والدعوية، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكليته بعد تجارب متعددة، وهو يبذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنية والنبوية، واقتلاع بذور الإلحاد التي سعى العلمانيون الكماليون إلى غرسها في الأرض التركية والعالم الإسلامي.

ونقدم في الصفحات التالية نبذة عن حياة هذا المصلح العظيم، وداعية الإيمان القرآني الكبير، مركزين على بعض مراحل حياته المتصلة بالدعوة، ومقدمين -من ثم – رأيه الإبداعي في أسباب تخلف المسلمين، مما جعلهم أهلاً لهذا التمزيق، وخدماً مطيعين للمذاهب الوافدة الهدامة؛ شرقية كانت أو غربية !

مراحل حياة النورسي :

ولد سعيد النورسي في قرية "نورس " وهي إحدى قرى قضاء "خيزان " التابع لولاية " بتيس" شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦)م [١].

كان والده مميزا ورعاً يُضرب به المثل في الزهد والورع فلم يطعم أولاده من غير الحلال. حتى إنه إذا عاد بمواشيه من المراعي يشد أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وتقول أمه "نورية ": إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء.

وقد تلقى علومه الأولى في كتّاب القرية " طاغ " على يد محمد أفندي سنة (١٨٨٢م) وكان يتلقى على أخيه الكبير " الملا عبد الله " دروساً في عطلة الأسبوع... إلا أنه لم يلبث في هذه القرية طويلاً فاستمر على دراسته في قرية " بيرمس".

وفي سنة (١٨٨٨م) ذهب إلى " بتليس " والتحق بمدرسة الشيخ " أمين أفندي"[٢].

وفي سنة (١٨٩٢م) ذهب الملا سعيد إلى ماردين حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب غن أسئلة قاصد يه. وقد أحس والي المدينة "نادر بك" ــ لوشاية البعض ــ بأن هذا الشخص خطر وأنه يحدث بلبلة في المدينة لذلك قرر نفيه من المدينة، فسيق بصحبة الجندرمة (الشرطة) ويداه مغلولتان. . إلى مدينة " بتليس ". وقد عرف " عمر باشا" والي بتليس آنذاك بعد مدة قصيرة من وصول (الملا سعيد) فضيلة هذا الشاب العالم ومنزلته فأحبه، وأصر عليه أن

---

(١) اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع : بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره ص١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، ط٣ الكلمات للنشر.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

يقيم معه في منزله. امتنع (الملا سعيد) في أول الأمر ولكن الوالي ألح كثيرا حتى جعله يقبل وخصص له غرفة في بيته [١].

وفي سنة ١٨٩٤م ذهب إلى " وان " بدعوة من واليها " حسن بك " حيث بقي عنده، ثم في منزل " طاهر باشا " ولقد هيأ الله له ظروف الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (من جغرافية، وكيمياء. وغيرهما)، وحينما دخل معهم في نقاش شعره بقصوره في هذه العلوم، مما جعله يقبل على تعلمها بشغف عظيم. حتى أتقنها وأصبح متمكناً منها، لدرجة أنه كان قادراً على التأليف ومناقشة المختصين فيها [٢].

وفي وهذه الفترة وأثناء إقامته في "وان" قرأ في الصحف المحلية خبراً مدهشاً هزّ كيانه كله هزاً عنيفا فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلاد ستون) في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم : " مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم، لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به". وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال : "لأبرهننّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها "[٣].

وقد عاد إلى استنبول مرة أخرى سنة (١٩٠٧م) حيث سكن في (خان الشكرجي) في منطقة (فاتح) وكان هذا الخان مقرا لكثير من المفكرين والأدباء أمثال الشاعر المشهور " محمد عاكف ".

---

(١) المرجع السابق ص٢٣.

(٢) المرجع السابق ص٢٤.

(٣) المرجع السابق ص٢٥.

وأثناء إقامته في استنبول علق لوحة على باب غرفته كتب فيها : هنا يجاب عن كل سؤال، وتحل كل مشكلة دون أن يسأل هو أحداً من الناس [١].

وفي استنبول قدم سعيد النورسي عريضة إلى السلطان " عبد الحميد " يطلب فيها فتح المدارس التي تعلم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء. . إلخ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه. ثم يقابل السلطان نفسه وأثناء مقابلته ينتقد الاستبداد ونظام الأمن والاستخبارات لقصر (يلدز)

وفي هذه الفترة من عمره صرف النورسي جل همه إلى إلقاء الخطب، وكتابة المقالات مبيناً فيها مفهوم الحرية في الإسلام، وتأثير الإسلام في الحياة السياسية، ومطالباً بتحكيم الشريعة الغراء، ومحذراً من التفسير الخطأ للحرية، حيث شعر بأن هناك محاولات خبيثة وأيد خفية تحاول خدمة أغراض مناهضة للإسلام فكان يقول : "بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم، لا تصبوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلا بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها "[٢].

❁❁❁

وفي شتاء سنة ١٩١١ م (١٣١٧هـ) زار ديار الشام حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعاً غفيراً من المصلين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان " الخطبة الشامية " التي شخص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، منها:

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

١- اليأس والقنوط الذي مازال يحد أسباب الحياة في نفوسنا.

٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

٣- حب العداوة.

٤- تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥- ذيوع الاستبداد، و ذيوع الأمراض المعدية المختلفة.

٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفات إلى النفع العام [١].

❁❁❁

ولا شتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين، فقد دُعي إلى أنقرة – مركز حركة المقاومة – من قبل مصطفي كمال للانضمام إليهم إلا أنه رفض الدعوة قائلا:

" إنني أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة، وليس وراء الخنادق، وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول "

ولكن الدعوة تكررت، فأرسل إلى أنقرة بعض طلابه ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالاً حافلا، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيراً، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات مصطفى كمال وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيراً، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانا في ١٩٢٣/١/١٩م يتضمن عشرة مواد، موجها إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام مستهلاً بـ " يا أيها المبعوثون . إنكم لمبعوثون ليوم عظيم " وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزع بين النواب، وتولى إلقاءه الجنرال " كاظم قره بكر " (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائبا قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦.

لـم يـرض مصـطفى كمـال عـن هـذا البـيان فاسـتدعى بديـع الـزمان وحـدثت بينهما مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال :

"لا ريـب أنـنا بحاجـة إلـى أسـتاذ قديـر مـثلك، لقـد دعـوناك إلـى هـنا للاسـتفادة مـن آرائـك المهمـة، ولكـن أول عمـل قمـت بـه لـنا هـو الـحديث عـن الصـلاة، لقد كـان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس "

فأجابه بديع الزمان مشيراً إله بإصبعه في حدة :

"باشـا... باشـا ... إن أعظـم حقـيقة بعـد الإيمـان هـي الصـلاة، وإن الـذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود.."[1].

❁❁❁

وكانت هذه المقابلة في سنة ١٩٢٢،، وبعدها أدرك النورسي أنه لا أمل في عصابة أتاتورك، وأدرك – أيضاً– أن الله يفرض عليه مهمة كبيرة، وأن عليه أن يقف بكل مواهبه وطاقاته ضد الإلحاد الكمالي الزاحف.

ومـنذ الـتاريخ السـابق بـدأت رسـائل الـنور الـتي كـان لهـا أكبـر الأثـر فـي نشـر معـالم الإيمـان وغـرس بـذور اليقـين فـي نفـوس الـناس فـي مـواجهة عواصـف الإلحـاد العاتية.

وقـد بلغـت هـذه الرسـائل نحـو أربعـة آلاف صـفحة مـوزعة علـى نحـو عشـرة مجلـدات، وكـان لهـا تأثيـر عظـيم – ومـازال – فـي مقاومـة الإلحـاد، ويقـدر بعضـهم عـدد مـريدي الشـيخ الآن بأربعـة ملايـين فـي تـركيا وحـدها، أمـا المتأثـرون بفكـره فـلا يحصون.

ومن الطريف أن سعيد النورسي قام بنفسه بتقسيم حياته إلى مراحل ثلاث :

---

[1] المرجع السابق، ص٥٢، ٥٣.

المرحلة الأولى : " سعيد القديم ":

وهي مرحلة انخراطه في السياسة على أمل نشر الإسلام عن طريقها إلى أن تبين له فساد هذا الطريق ؛ لأن وسائل السياسة الخبيثة لا تصلح لنشر دعوة الحق والنور الواضحة، وهذه المرحلة تمتد إلى سنة ١٩٢٦م

المرحلة الثانية : " سعيد الجديد ":

وهي مرحلة تمتد إلى سنة ١٩٤٩م، وكان شعار سعيد في هذه المرحلة : أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، وقد ركز في هذه المرحلة على مسألة إنقاذ الإيمان في تركيا، ومع هجره للسياسة على هذا النحو الواضح، فإن أعداء الله تتبعوه ونفوه وسجنوه.

المرحلة الثالثة :"سعيد الثالث":

ومن الملاحظ أنه هو الذي أطلق على نفسه هذا الاسم بعد خروجه من سجن مدينة (آفيون)، وهي مرحلة تغيرت فيها الأوضاع في تركيا لصالح النورسي، وذلك بعودة الأحزاب السياسية إلى النشاط، وفوز الحزب الديمقراطي المعارض في الانتخابات وبالتالي إقصاء حزب الشعب الجمهوري الأتاتوركي الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.

ولنا أن نتوقع مدى واسعاً من الحرية، والتربية الجماعية، وذيوع رسائل النور في ظل القانون، وطباعتها، كما تميزت هذه الفترة بكثرة رحلات النورسي الدعوية والتربوية حتى لقي ربه سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠ م) وذلك في مدينة أورفة، التي أصر على الذهاب إليها ليموت فيها بالرغم من اعتلال صحته!!

وقد حاولت السلطات إخراجه منها فأبى، حتى لقي الله بها.

ولكن موته لم يكفهم، فما زالوا يفكرون في ملاحقته بعد موته، حتى أصدروا قراراً بنقل جثته من مقبرته إلى جهة غير معلومة، حتى أخفوا مقبرته عن الناس، فلم تعرف له مقبرة حتى الآن، لقد لاحقه الملاحدة والعلمانيون واليهود حياً وميتاً. ومع ذلك فقد عاش النورسي وعاشت أفكاره في قلوب عشرات الملايين عبر لغات حية كثيرة، ترجمت إليها كتبه ورسائله، وعبر الجرائد التي تصدر عن تلامذته، وعبر تلامذته المنتشرين في آسيا وأوربا وأمريكا وإفريقيا.

رحمه الله رحمة واسعة.

❁❁❁

النورسي ورؤيته لأسباب تخلف المسلمين

لا يتحرك التاريخ بعامل واحد، كما أنه لا يتحرك بعوامل مرئية منظورة وحسب،كما أن المدى الذي يجب أن يبصره مفسر التاريخ أو فيلسوفه يجب أن يمتد إلى أكبر مساحة زمنية ومكانية تتشابك مع الواقعة موضوع التحليل ... ولئن كان تاريخ الإنسان الفرد محدود التشابك منظوراً، يمكن قياسه بقياسات نفسية واجتماعية محدودة، فإن دراسة الحضارات في تشابكها وتفاعلها واتساع أمداء إشعاعاتها وأصداء إبداعاتها، ومراقبة عوامل التأثير الإيجابية والسلبية فيها ... كل ذلك لا يمكن أن يتحقق بوسائل محسوسة تجريبية، بل لابد معه من وسائل فحص عقلية تجريدية، ومن هذه الناحية يصبح التاريخ- كما يقول العلامة الجزائري مالك بن نبي- " ضرباً من الميتافيزيقا، إذ أن مجاله يمتد إلى ما وراء السببية التاريخية، لكي يلم بالظواهر في غايتها" [١].

---

(١) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ص٢١، طبع دار الفكر دمشق ١٤٠٢.

ومـا دام الماديـون ينكـرون " الغائـية "- ابـتداء، ويؤمـنون بـأن الحضـارات تمضـي منطلقة من قواعد (عفوية صدفية) وتسير إلى لا نهائية غير واعية، فإن من الصعب أن يؤمنوا بوجود (عوامل ميتافيزيقية) وراء حركة التاريخ، بل إنهم يربطون الوقائع بعوامل اقتصادية آنية محدودة، وبتطور آلي صناعي تجريبي... ولا أدري كيف يعلل هؤلاء سقوط الحضارات، وهي في قمة ازدهارها الاقتصادي، الذي تواطأ ذووه على الترف والتقدم المادي ؟! ولا كيف يعللون سقوط الإمبراطورية الرومانية خلال خمسة قرون كاملة- حسب تحليل جيبون- بحيث اعتبر المؤرخون المسلحون بالرؤية العميقة للتاريخ أن تدفق القبائل الجرمانية خلال القرنين الرابع والخامس للميلاد كان الضربة الأخيرة المباشرة التي تحللت على إثرها إمبراطورية روما، بينما كان لسقوط أسرة " الهان " في الصين، ولسلسلة الصراعات القبلية السابقة بين الشعوب المغولية والهونية، ثم الهونية الجرمانية في المحيط الروسي - ثم الجرمانية القوطية[1]، وما أفرزته المسيرة الداخلية للإمبراطورية الرومانية من فساد أخلاقي وصراعات طبقية واجتماعية، وطغيان كنسي - كان لكل ذلك **تأثيره البعيد والعميق في سقوط** الإمبراطورية الرومانية ... **"فهناك إذن خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة** تخلع على تفسير التاريخ طابعاً ميتافيزيقيا أو كونيا. .. "[2].

إن هذا الجانب الميتافيزيقي أو الكوني الذي يربط أشلاء التاريخ بطريقة **عضوية ويعطي لمسيرة التاريخ معنى وعقلانية وغاية ... إنما هو في الحقيقية** جوهر عميق واضح يبصره .

---

(١) مالك بن نبي : المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) مالك بن نبي . المرجع السابق، ص٢٣.

" **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** " [البقرة :٣] ويؤمنون بأن تقدير الناس للزمان غير تقدير الله له، " **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** " [الحج : ٤٧]، وبأن الله يحرك هذا التاريخ البشري وفق سنن ثابتة وغايات واضحة :

"**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)" [الأنبياء : ١٦ـ ١٨].**

وما وقع للإمبراطورية الرومانية في رحلة سقوطها التي امتدت خمسة قرون يقع لكل الإمبراطوريات التي مثلت ظواهر حضارية كبرى، ولم تكن مجرد دول ينزل عليها النازلون، ثم يرحلون، كما يرحل المحتلون الطارئون.

ووفق هذه الرؤية البعيدة العميقة في التحليل يرى مالك بن نبي أن موقعة (صفين) كانت بداية السقوط من المثال إلى الواقع- بكل معطياته السلبية والإيجابية- في رحلة الحضارة الإسلامية.

ويري أن مركب الحضارة الإسلامية قد تحلل بسقوط دولة الموحدين الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها " [1].

ومهما يكن الاختلاف في الرؤية بيننا وبين بعض النتائج في تحليلات العلامة " مالك بن نبي " الحاسمة، فإن تحليله جدير بالتقدير، وهو في محتواه الأخير- يمثل الرؤية الإسلامية الموضوعية التي لا تحصر الأشياء في اللحظة والمادة والمرئي، ولا تعمى عن الحقائق الكبرى، وبعبارة أوجز، تلك التي تبصر البعد الغيبي، وتكاد تلمس عناية الله المهيمنة على كل شيء، والتي لا يعقلها إلا العالمون !!

---

[1] وجهة العالم الإسلامي ص٣١.

وفي يقيني أن هذه الرؤية الحضارية التي أبصرها المهندس الكهربائي الجزائري المتوفى سنة ١٩٧٥ م " مالك بن نبي " كانت ستجد أعماقاً رحيبة وآفاقاً فسيحة لو أنها تفاعلت مع رؤية عالم طبيعي آخر كان يعيش في مركز الخلافة الإسلامية الأخيرة، ويرى بعينيه (صفين) جديدة، وسقوط خلافة موحّدية أخيرة عاشت خمسة أضعاف خلافة الموحّدين المغربية، وامتدت أضعاف امتدادها [١].. . وهي الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م.

كان النورسي يرى كل ذلك، ويعيشه، ويحترق وجدانه به، وكان يبحث بوعيه وعقله عن أسباب ذلك الانحسار، ولاتهمه المادة ولا الأرض، فليس عنهما يبحث وإنما يبحث عن أشجار الإيمان التي توشك- أمام لهيب المادية وحرائق الإلحاد- أن تذوي وتتحول إلى رماد. . ولعل بديع الزمان سعيد النورسي كان يسأل نفسه :

- هل يمكن حقاً أن تموت بذور الإيمان ؟
- هل ينتهي تاريخ الأنبياء على الأرض ؟
- هل سيضيع الإسلام، وهو الدين الحق، والحجة البالغة، وتسود المادية والانحلال؟
- هل يترك الله الحضارة الإنسانية تنحدر إلى هذا القاع دون شهداء على الناس يسعون لعودة الميزان القسط في قلوب الناس وعقولهم ؟

أجل، كان كل ذلك يدور في خلده خلال عقدي العشرينات والثلاثينات من قرننا الميلادي العشرين، وهو يرى الامتداد اليهودي الصليبي، والهيمنة الغربية والانحلالية تنشر سمومها دون مقاومة ذات شأن على هذه الأرض ؟

---

[١] عاشت دولة الموحدين محصورة في المغرب والأندلس بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجري تقريباً.

ولم يكن أمامه- وهو لا يملك إلا إيمانه وعقله- إلا أن يحاول التعرف على (حكمة الله) فعله يبصر بعض الومضات التي تُطَمْئِنُ نفسه الملتاعة، بل لعله يكتشف بعض الأشعة الزاحفة من حيث يرى أكثر الناس المستقبل مظلماً الظلمة كلها، وأن المادية أو اللادينية قد ورثت الأرض ومن عليها.

ومن حيث أراد أو لم يرد أصبح " بديع الزمان سعيد النورسي " من أكبر فلاسفة التاريخ المسلمين، الذين يحللون- بالمبضع الإسلامي- الوقائع والأحداث، ويبصرون عناصر الحكمة والعناية والرحمة وراء كل حدث ... ولا يتطرق اليأس إلى نفوسهم مهما ادلهمت الخطوب وتكاثرت السحب .... فلا شيء يقع في ملك الله إلا ما يريد، ولا يند عن الله شيء، والله لا يظلم الناس شيئا، ولا يُجري شيئا عبثاً في هذا الكون.

وهذه كلها (معالم) تمنح قلب المسلم الثبات والاستقرار، وتعطيه أملاً متجدداً، واستعلاءً على كل الآلام والنكبات، وصموداً في وجه كل العواصف، وثقة مطلقة في الله.

وعلى سعة تراث " بديع الزمان النورسي " وتشعبه، فإنني أرى أن هذه البصيرة النافذة التي يَحلل بها النورسي أفعال الله في حركة التاريخ، ويفلسف بها الأحداث والوقائع كانت من أكبر المفاتيح التي منحها الله إياه.

ومن خلال هذه الرؤية الإسلامية للوقائع، وبعمق لم يتوافر لغيره أبصر النورسي {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ } [1]، وعرف عن يقين علمي أن الله سبحانه وتعالى { أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ } [2]، وأنه سبحانه {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ

(١) سورة النمل : ٨٨

(٢) سورة السجدة : ٧

شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [١] ... نعم . فكل شيء في الوجود - هكذا يقول لنا النورسي - فيه جهة حسن حقيقية حتى ما يبدو أقبح شيء، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي جميل بنتائجه التي يفضي إليها.

فهناك من الحوادث التي يبدو ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أن تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق وأنماط من نظم دقيقة.

" فتحت حجاب الطين والغبار، والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة ".

" وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازة لأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملة نذر البين، وعازفة لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قر الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة [٢].

" بيد أن الإنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح !" [٣].

---

(١) سورة طه : ٥٠

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي - كليات رسائل النور - ١- الكلمات. ص. ٢٥٠، ط دار سوزلر للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(٣) السابق نفسه، ص ٢٥٠.

هذا مع القرآن الكريم- الذي هو منبع الأدب الخالص- يضم بين سور، تعابير تشير إلى إشارات في غاية اللطف والجمال إلى هذه الوجوه الحكيمة والستائر اللطيفة. فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية لا تخلو أعماقها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية وحكم خبيئة، تتوجه بكل ذلك إلى خالقها الكريم كما قدّر وهدى وأراد [1].

❁ ❁ ❁

والفرد مهما كانت طاقاته وقدراته على استيعاب الحدث ونظراته الشمولية والتركيبية فإنه في النهاية بشر تحكمه أنانيته وفرديته، وهو عاجز- إلا من عصم ربك- عن رؤية ما وراء الأشياء، والبصر بالعواقب البعيدة والتجرد عن ربط الأحداث ربطاً مباشراً بشخصه، فهي خير ما دامت خيراً لشخصه، وهي شر ما دامت شراً لشخصه [2].

ويضاف إلى عجزه هذا عجز آخر عن التركيب الكلي للأجزاء المتناثرة والوقائع المتضادة والأمور اللامعقولة التي يعايشها في كل يوم، ولا يعرف لها عللا جامعة، ولا حكماً قاطعة... لكن بديع الزمان سعيد النورسي- وهو فيما نعتقد ممن عصمهم الله من الزلل، واصطفاهم لرؤية الأشياء على حقيقتها وفي إطارها الكلي- يرتفع إلى المستوى السابق الذي يجمع الجزئيات، ويبصر ما وراء الوقائع ويضع يده على المعاني الحقيقية لأفعال الله.

فالسجن والاعتقال (لطمة حنان)، وأما المرض، فياله من نعمة عظيمة، بل هو نوع من " الدواء" وهو يكسب المريض " أرباحاً طائلة "، وليس لك أيها

---

(1) السابق نفسه، ص٢٥١.

(2) سعيد النورسي : رسالة إلى كل مريض ومبتلى ص٧.

المـريض حـق فـي الشـكوى... بـل علـيك الشـكر، وعلـيك الصـبر؛ لأن وجـودك وأعضـاءك وأجهـزتك ليسـت ملكـك أنـت، بـل هـي ملـك لآخـر يتصـرف فـي ملكـه كيف يشاء [١]!!

وأمـا إبصـار الجـزئيات ومـا وراءهـا فهـو معلـم مهـم مـن معـالم الـرؤية الإسـلامية للـتاريخ، ولعـل الجـزئية الشـديدة، والتمـزيقية الشـائعة فـي تـدوين الأحـداث التاريخـية وفـق الـنمط التاريخـي التقلـيدي، كانـت مـن أبـرز الأسـباب فـي تخلـف المسـلمين فـي التنظيـر الاجتماعـي والفلسـفي للـتاريخ... اللهـم إلا فـي ذلـك الاسـتثناء المعروف المتمثل في شخصية عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ.

لكـن " النورسـي" الـذي تمتـزج فـي ثقافـته الجـوانب العلمـية والشـرعية والحضـارية، اسـتطاع أن يمسـك بهـذه الخـيوط، وأن يـرتفع فـوق الجـزئيات، ويدعـو إلـى وضـعها فـي إطارهـا الصـحيح... يقـول النورسـي : " لـندع الجـزيئات يـا صـاحبي، ولنـتأمل فـي هـذا العـالم العجـيب، ولنشـاهد أوضـاع أجـزائه المـتقابلة بعضـها مـع الـبعض الآخـر، ففـي هـذا العـالم الـبديع مـن الـنظام الشـامل والانـتظام الكامـل، كـأن كـل شـيء فاعـل مخـتار حـي يشـرف علـى نظـام المملكـة كلهـا، ويتحـرك منسـجماً مـع ذلـك الـنظام العـام، حتـى تـرى الأشـياء المتـباعدة جـداً يسـعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر".

"انظـر : إن قافلـة مهيـبة تـنطلق مـن الغيب (قافلـة النـباتات) مقـبلة علينـا تحمـل صـحون أرزاق الأحـياء ... ثـم انظـر المصـباح الوضـيء (الشـمس) المعلـق فـي قـبة المملكـة فهـي تنيـر الجمـيع، وتنضـج المأكـولات المعلقـة بخـيط رقـيق (أغصـان الشـجر) والمعرضـة أمامـه، بـيد غيبـية. ألا تلـتفت معـي إلـى هـذه الحـيوانات النحـيفة

---

[١] السابق نفسه، ص١٠، نشر مكتبة النور ١٩٩٢م - القاهرة، ترجمة حسان قاسم الصالحي.

الضعيفة العاجزة، كيف يسيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص يتدفق من مضخات متدلية فوق رؤوسها، وحسبها أن تلصق أفواهها بها"[1].

إن هذه الرؤية الشاملة التي تتعامل مع لوحة الكون واضعة يدها على كل ما فيها من إبداع، مبصرة ما وراء كل خط أو لون أو ظل أو بعد من معنى، ومبصرة كذلك المعطيات الكلية الجمالية والنفعية والخيرية للوحة كلها ... هذه الرؤية هي منحة ربانية تميز بها بديع الزمان سعيد النورسي، وهي من صميم الرؤية الإسلامية للتاريخ.

إن الماديين الذين لا يبصرون لوحة الكون بكل معطياتها، ولا يبصرون القوانين المعنوية الرحيمة التي تربط شتى الجوانب، وتقود السنن إلى غاية محددة، إنما هم قطيع من العميان الذين فقدوا البصيرة والملكة العقلية.

يقول بديع الزمان :

"يأتي ملحد إلى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع، يُعظّم فيه المعبود الأزلي ويُقدس، يأتيه وهو يحمل فكرة " الطبيعة " الجاحدة، ذلك الجهل المطبق.

فيتصور " القوانين المعنوية " التي يشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع، والنابعة من " الحكمة " البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد، والأشياء الجامدة [2] !!

وفي مواجهة الرؤية التاريخية المادية التي تقيم نظرتها للكون والحياة والإنسان على أساس الصراع والتضاد والتنافر، يقدم النورسي الرؤية الإسلامية الموضوعية التي ترى أن (التعاون) و(التكامل) و(التآلف) هي من الأسس التي تنبى عليها علاقات الأجزاء الكونية الاجتماعية، وهي- أيضاً- الطريق للتقدم

---

(١) النورسي : الكلمات، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) اللمعات ص ٢٨٢.

والإبداع وتسخير عناصر الكون الكثيرة لخدمة الحياة والإنسان، والجدلية القائمة بين موجودات الكون ؛ جدلية استثارة وأنس وتلاقح وسعي لإنجاز المهام الضرورية لاستمرار الحياة وازدهارها ...

يقول النورسي :

" إن جلوة الفردية وضعت على وجه الكائنات سكة من سكك الوحدة، بحيث جعلت الكائنات في حكم كلّ لا يقبل تجزؤاً ".

" فمن لا يتصرف في جميع الكائنات، لا يكون مالكاً حقيقياً لجزء منها أصلا، وتلك السكة هي أن موجودات الكائنات وأنواعها يتعاون بعضها مع بعض، ويعمل بعضها لتكميل عمل الآخر، كدواليب مصنع منتظم، فتشكل وحدة وجود بصورة تداخلها وتعانقها وسبق بعض إلى إمداد بعضها وإجابة بعض لسؤال بعضها، وتعاونها وتساندها بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض كالعناصر الموجودة في جسد إنسان.

فمن أمسك بزمام عنصر، إذا لم يستطع أن يمسك أزمّة الكل، لا يضبط زمام ذلك العنصر الوحيد ... فهذا التعاون والتساند والتجاوب والتعاون، سكة كبرى مشرقة جداً في سكك الوحدة..." [1].

ولكي نعطي لهذه النظرة النورسية قيمتها الحقيقية، فيجب أن نتذكر أنها كتبت في فترة زمانية كانت المادية الماركسية تعيش أيام وهجها وزخرفها، وكان الوقوف ضد مقولاتها يبدو وقوفا ضد تيار عالمي مدعم بالغطرسة والقوة، ولكن النورسي الذي كان ينطلق من تلمذة مباشرة للقرآن، وإيمان مطلق بأستاذية

---

(1) مجموعة اللمعات للنورسي، ترجمة الملا محمد زاهد، ص ٥٤٠، منشورات دار الآفاق، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

القرآن للحياة والتاريخ، لم تبهره الضغوط الطارئة، فاستمد من ثوابت الرؤية القرآنية وخلودها واستعلائها على الأمراض الطارئة ... استمد منها آراءه التي أثبت التاريخ أصالتها ... وليته عاش ليبصر معنا سقوط الماركسية والمقولات المادية، وبطلان الصراع، وبروز حتمية التعاون !!

الإنسان ومهمته في الحياة :

بينما تسحق المذاهب الجماعية إنسانية الإنسان، وبينما تؤله المذاهب الفردية الإنسان، تأتي الرؤية الإسلامية للإنسان متوازنة بلا إفراط ولا تفريط... إنه خليفة الله، يستمد عظمته من التصاقه بمهمة الخلافة، ومتى تخلى عن العبودية الحقة التي هي جوهر مهمة الخلافة فقد وظيفته واستعبده الشيطان ... إنه عظيم في إطار وظيفته الخلافية، أو بتعبير النورسي الدقيق:

" إن الإنسان هو نسخة جامعة لما في الوجود من خواص، حتى يشعره الحق سبحانه وتعالى بجميع أسمائه الحسنى المتجلية بما أودع في نفس الإنسان من مزايا جامعة. وهو مرآة عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، فهو يعرف بضعفه وعجزه وبفقره وحاجاته، وبنقصه وقصوره قدرة القدير ذي الجلال، وقوته العظيمة، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة.

فيكون الإنسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة، بل حتى إن ما يحمله من ضعف شديد، وما يكتنفه من أعداء لا حدَّ لهم، يجعله يتحرى دائما عن مرتكز يرتكز عليه، ومستند يستند إليه. فلا يجد وجدانه الملهوف إلا الله سبحانه.

وهو مضطر أيضا إلى تحري نقطة استمداد يستمد منها حاجاته التي لا تتناهي، ويسد بها فقره غير المتناهي، ويشبع آماله التي لا نهاية لها، فلا يجد في

غمرة تحريه إلا الاستناد – من هذه الجهة – إلى باب غني رحيم، فيتضرع إليه بالدعاء والتوسل [١].

ويأتي السقوط حين يحاول الإنسان أن يقف وحده، بعيداً عن عون الله ... إنه يحاول أن يكون مستقلاً ؛ يستعبده عقله أو تستعبده حريته، وهو لا يدري أن عقله لن يؤدي وظيفته إلا بالزيت الذي يقتبسه من مصباح الوحي أو شمس الوحي... إنه سيتوه أمام ألغاز الكون، وسيقتل نفسه ... كما أن حريته ستصبح وبالاً عليه إذا كانت حرية حيوانية لا تحترم ثوابت الإنسانية، ولا تلتزم بتوجيهات الله في الأمور والنواهي.

وها قد رأينا عبادة العقل والحرية، كما ظهرت في المؤتمرات العالمية الأخيرة، تقود الإنسانية إلى الدمار الأكيد ... فالشذوذ الجنسي بصوره المختلفة يراد له أن يكون تشريعاً عالمياً، وحقاً إنسانيا، مما يثبت أنه ليس بالعقل ولا بالحرية المنفلتين من وظائف الوحي وضوابط الشرع تستقيم الحياة الإنسانية، كما أن الإنسان المجرد من وظائفه سيقود نفسه إلى الدمار ... يقول النورسي:

"أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الإمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج ؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقه، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متجسمة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية ؟ حاشا وكلا"

ثم يخاطب النورسي نفسه محدداً لها خلاصة وظائفها في هذه الحياة فيقول لها بأسلوب حكيم جامع:

---

(١) السابق ص١٣٦.

"إن كنت تريدين أن تفهمي شيئاً من : غاية حياتك، ماهية حياتك، صورة حياتك، سر حقيقة حياتك، كمال سعادة حياتك ... فانظري إلى مجمل " غايات حياتك " فإنها تسعة أمور:

أولها : القيام بالشكر الكلي.

ثانيها : فتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى.

ثالثها: إعلان ما ركبت فيه الأسماء الحسنى من لطائف وإظهارها أمام أنظار المخلوقات في معرض الدنيا.

رابعها : إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك، بلسان الحال والمقال.

خامسها : التجمل بمزايا الطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء الحسنى.

سادسها : شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، ورؤية تسبيحاتها لخالقها.

سابعها : معرفة الصفات المطلقة للخالق الجلي ووزنها بما وهب لك من نماذج. مصغرة لمعرفتها.

ثامنها : فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم فيما يخص وحدانية وربوبية مبدعه وخالقه وربه

تاسعها : إدراك درجات القدرة الإلهية بموازين العجز المنطوية في نفسك "[١].

النورسي ودور العقل في صناعة الحضارة

يرى " اشبنجلر " أن الحضارة تقوم على " الإدراك المميز البديهي"، وأن الرؤية الشعرية هي المنهج المناسب لدراسة التاريخ، وأنه ليس بالعقل والمعرفة وحدهما يضطرد التقدم البشري. واستلهاماً من ابن خلدون يرى العلامة مالك بن نبي أن " الروح

---

[١] بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور، ١- الكلمات ص٢٣،٢٤.

" هي مرتكز الانطلاق الحضاري، ثم يأتي العقل في المرحلة الثانية، ليقدم صوراً من الإبداع الذي يؤدي إلى العلوم، ثم إلى الترف... ثم يبدأ الانكسار الحضاري حين تذوي الروح ويمتد العقل والترف. أما بديع الزمان النورسي فقد كان مباشراً في مواجهة طغيان العقل وتوظيفه توظيفاً دونياً سلبيا ماديا ... يقول محذراً من هذا التوظيف المدمر للعقل :

" العقل عضو وآلة "، إن لم تبعه – يا أخي – لله ولم تستعمله في سبيله، بل جعلته في سبيل الهوى والنفس، فإنه يتحول إلى عضو مشئوم مزعج وعاجز، إذ يحملك آلام الماضي الحزينة وأهوال المستقبل المخيفة، فينحدر عندئذ إلى درك آلة ضارة مشئومة، ألا ترى كيف يهرب الفاسق من واقع حياته وينغمس في اللهو أو السكر إنقاذاً لنفسه من إزعاجات عقله ؟ ولكن إذا بيع العقل لله، واستعمل في سبيله ولأجله، فإنه يكون مفتاحاً رائعاً بحيث يفتح ما لا يعد من خزائن الرحمة الإلهية وكنوز الحكمة الربانية فأينما ينظر صاحبه، وكيفما يفكر يرى الحكمة الإلهية في كل شيء، وكل موجود، وكل حادثة، ويشاهد الرحمة الإلهية متجلية على الوجود كله، فيرقى العقل بهذا إلى مرتبة مرشد رباني يهيئ صاحبه للسعادة الخالدة

فيا أيها العقل، أفق، أين الآلة المشئومة من مفتاح كنوز الكائنات ؟ ويا أيتها العين ؛ أبصري جيداً، أين السمسرة الدنيئة من الإمعان في المكتبة الإلهية ؟

ويا أيها اللسان ؛ ذق بحلاوة، أين بواب المعمل والإسطبل من ناظر خزينة الرحمة الإلهية ؟" [١].

والحق أن هذه الرؤية المحايدة لوظيفة العقل، تمثل صميم الرؤية الإسلامية التي انطلق منها النورسي على امتداد فكره، فالعقل بدون فقه قلبي، وفطرة إيمانية، وغايات كريمة ربانية. يصبح كالصاروخ الذي ينطلق ليدمر قواعد انطلاقه والذين أطلقوه !!

---

[١] بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور، ١- الكلمات ص٢٣،٢٤.

الإنسان
بين وظيفة المرآة العاكسة
والفاعلية الحضارية

لم يقدم لنا (بديع الزمان سعيد النُورْسي)- في كلام مباشر - نظرية فلسفية يفسر من خلالها حركة التاريخ.

إنه أصلاً لم يحاول أن ينطلق من قواعد الانطلاق الفلسفية ؛ لأن قاعدة انطلاقه كانت قرآنية خالصة، وكان يحافظ عليها من عوامل التأثير - أو التشويه الفلسفية ؛ لا لأن قواعد الانطلاق القرآنية كافية فحسب، بل لأن إقحام فكر فلسفي مكون من أخلاط مشوبة بالتأثيرات المادية أو السوفسطائية من شأنه إفساد الرؤية أو قاعدة الانطلاق القرآنية !!

ومع ذلك فعندما أمعنت النظر في الرؤية (النُورْسية) التي لا شك في أنها جديدة ورائعة حول كليات أسماء الله الحسنى وانعكاساتها في الإنسان الذي جعله الله (مرآة) تنعكس عليها أسماؤه الحسنى، فتظهر قدرة الله المطلقة من خلال قدرة الإنسان النسبية، ويظهر علم الله المطلق في مرآة علم الإنسان النسبي ...

وهكذا تظهر آثار سمع الله (السميع) وبصر الله (البصير) وحكمة الله (الحكيم) ...

أقول : عندما أمعنت النظر في هذه الرؤية التي يكاد (النُورْسي) ينفرد بها على هذا النحو التفصيلي والتطبيقي والتمثيلي الرائع، أيقنت أن النُورْسي كان يقدم رؤيته لأسماء الله الحسنى رؤية تركيبية ذات إطار معرفي قرآني يفسر به حركة الإنسان ... الإنسان كفرد ... الإنسان كمجموع (تاريخ وحضارة)... الإنسان وحركة وكون ... وأما الآثار أو ما يسميه المنظرون لفلسفة التاريخ بالعامل الاقتصادي أو العامل الاجتماعي، أو الروحي أو النفسي ... أو الفردي (الصفوة- النخبة) أو (الجماعي- الاشتراكي) ...

أما كل هذه العوامل فليست إلا بعض مظاهر لفاعلية الأسماء الحسنى في حركة الإنسان والكون، فاعلية رحمة من (الرحيم الرحمن) فتنتهي إلى سعادة وصعود.. أو فاعلية نقمةٍ من (المنتقم الجبار) فتنتهي إلى شقاء وسقوط !!

إن الله هو الفاعل في التاريخ، وإليه يجب أن تعزى حركة الإنسان والحضارة والكون.. و(الإنسان) هو المرآة العاكسة لتجليات الأسماء الحسنى... وهو بالتالي- المأمور بنقل صورة هذه الأسماء إلى الحياة، إبداعا وإرادة وقوة وعدلاً وقدرة ورحمة ... إنه المستخلف، وليست حقيقته الكبرى الأنية (أنا) إلا في القيام بوظيفة نقل أسماء الله الحسنى إلى عالم الأرض والكون... لأنه الوحيد من بين كل الكائنات- حتى الملائكة- الذي يملك الإرادة والحرية وعصيان الله وأيضا- طاعة الله- بطريقة اختيارية !!

إن (أنا) مفتاح، يفتح الكنوز المخفية للأسماء الإلهية الحسنى، كما يفتح مغاليق الكون. فهو في حد ذاته طلسم عجيب، ومعمى غريب، ولكن بمعرفة ماهية (أنا) يحل ذلك الطلسمَ العجيب ويكشف ذلك المعمى الغريب (أنا) ويفتح بدوره لغز الكون، وكنوز عالم الموجود.

ويقول : " اعلم أن مفتاح العلم بيد الإنسان، وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب ظاهراً إلا أنها منغلقة حقيقية ؛ فالحق سبحانه وتعالى أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح كل أبواب العالم، وطلسماً يفتح به الكنوز المخفية لخلافة الكون، والمفتاح- هو ما فيك من (أنا) إلا أن (أنا) أيضاً معمى ومغلق وطلسم منغلق فإذا فتحت أنا بمعرفة ماهيته الموهومة وسر خلقته انفتح لك طلسم الكائنات كالآتي :

إن الله جل جلاله وضع بيد الإنسان أمانة هي : (أنا) الذي ينطوي على إشارات ونماذج يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجلية وشؤونها

المقدسة أي يكون (أنا) وحدة قياسية تعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية [١].

ويقدم لنا النُوْرْسي- من خلال الكلمة العاشرة في مبحث الحشر- بعض الحقائق التي تومئ إلى تجليات الأسماء الحسنى في التاريخ والكون.

الحقيقة الأولى: باب الربوبية والسلطنة، وهو تجلي اسم (الربّ) [٢].

الحقيقة الثانية : باب الكرم والرحمة، وهو تجلي اسم (الكريم الرحيم) [٣].

الحقيقة الثالثة : باب الحكمة والعدالة، وهو تجلي اسم (الحكيم والعادل)[٤].

الحقيقة الرابعة : باب الجود والجمال، وهو تجلي اسم (الجواد والجميل) [٥].

الحقيقة الخامسة: باب الشفقة وعبودية محمد ﷺ، وهو تجلي اسم (المجيب والرحيم)[٦].

الحقيقة السادسة : باب العظمة والسرمدية وهو تجلي اسم (الجليل الباقي) [٧].

الحقيقة السابعة :باب الحفظ والحفيظة، وهو تجلي اسم (الحفيظ والرقيب)[٨].

الحقيقة الثامنة : باب الوعد والوعيد، وهو تجلي اسم (الجميل والجليل) [٩].

---

(١) بديع الزمان سعيد النُوْرْسي - كليات رسائل النور (الكلمات) ص٦٣٥، ٦٣٦.
(٢) النُوْرْسي : الكلمات :طبع سوزلر للنشر ط٢ - مصر - ١٤١٢هـ ص٦٥.
(٣) السابق ص٦٥
(٤) السابق ص٦٨
(٥) السابق ص٧٠
(٦) السابق ص٧٢
(٧) السابق ص٧٦
(٨) السابق ص٨١
(٩) السابق ص٨٤

الحقيقة التاسعة : باب الإحياء والإماتة، وهو تجلي اسم (الحي القيوم والمحيي والمميت) [١].

الحقيقة العاشرة : باب الحكمة والعناية والرحمة والعدالة، وهو تجلي اسم (الحكيم والكريم والعادل والرحيم) [٢].

الحقيقة الحادية عشرة : باب الإنسانية، وهو تجلي اسم " الحق " [٣].

الحقيقة الثانية عشرة : باب الرسالة والتنزيل، وهو تجلي " بسم الله الرحمن الرحيم" [٤].

فنحن بإزاء فاعلية وظيفية محددة تتجلى فيها الأسماء الحسنى فترعى حركة الإنسان والحياة والكون، بحكمة وقدرة وعلم وعدل.

وفي الوقت نفسه قد تكون الرحمة أو الرأفة- مع الحكمة والعلم والقدرة والعدل- متألقة في صورة من الصور، وقد تكون الجبارية أو الانتقامية متألقة في صورة أخرى تستوجب حالتها العقوبة والتأديب.

إن المساحة الفسيحة للكون والحياة وتقلبات الأمور عبر هذه المساحة بين انسجام وصدام وعدل وظلم ورعاية الله العليم الخبير لهذه المساحة كلها من خلال " مفاتيح الغيب " التي لا يعلمها إلا هو ... هذه الرعاية تشرق عبر مساحة الحياة والكون بتجليات إلهية تناسب كل حالة على حدة، وتحقق عدل الله ورحمته.

---

(١) التاسعة ٨٥

(٢) السابق ص٨٨

(٣) السابق ص٩٤

(٤) السابق ص٩٦

ولا يمكن القول بأن (الأسباب) الإنسانية أو الكونية الظاهرة أو غير الظاهرة، أو العوامل التي يبصرها الناس ويسمونها العوامل المادية أو الاقتصادية أو النفسية المحركة للتاريخ هي (الفاعلة) فليست إلا الشكل الذي يستطيع الناس أن يفهموه أو يبصروه أو يتعاملوا معه . أما الفعل الحقيقي فليس هو الظل الذي انعكس في المرآة وإنما هو الأصل أو هو الحقيقة المؤثرة نفسها، والتي قد يبصر الإنسان انعكاساتها في مرآة نفسه وقد لا يبصرها ...

إنني أعتقد أن النورسي من خلال معالجته الرائدة لأسماء الله الحسنى، قد اقترب بنا على نحو غير مسبوق من محورين خطيرين :

أولهما : لقد أصبح بإمكاننا إلى حد ما أن يفهم بعض ملامح تدبير الله للكون. لقد تطور فقهنا العبادي أو الدعاوى السكوني بأسماء الله الحسنى ... إننا نكاد نستشعر بقوة معنى كلمات الله التي لا تنتهي، وهي تقود حركة التاريخ والكون انطلاقا من الأضواء التي ألقاها النورسي على تجليات أسماء الله الحسنى، ولعل هذه الأضواء النورسية تعيننا على فهم أعمق لقوله تعالى في القرآن الكريم :" قُل لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً " [1].

يقول النورسي :

" إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه سماء ساميا للروح، وانبساطا واسعا لها ؛ إذ يسلم إلى أيديهم بدلا من تسع وتسعين حبه من حبات المسبحة، سلسلة مركبة من ذرات تسع وتسعين عالما من عوالم الكون التي يتجلي فيها تسع وتسعون اسما من الأسماء الحسنى، ويخاطبهم : هاؤم اقرءوا أورادكم بهذه السلسة، وهم

(١) الكهف : ١٠٩.

بـدورهم يقـرأون أورادهـم بـتلك المسـبحة العجيـبة، ويذكـرون ربهـم الكـريم بأعـدادها غير المحددة ".[١]

وفي خطابه للإنسان ليعرف حقيقة دورة (المرآة) يقول النورسى أيضا :

" أيهـا الإنسـان إن مـا تملكـه مـن نفـس ومـال لـيس ملكـا لـك، بـل هـو أمانـة لـديك فمالـك تلـك الأمانـة قديـر علـى كـل شـيء، علـيم بكـل شـيء رحـيم كـريم يشـتري مـنك ملكـة الـذي عـندك لـيحفظه لـك لـئلا يضـيع فـي يـدك، وسـيكافئك بـه ثمـنا عظـيما، فأنـت لسـت إلا جـنديا مكلفـا بوظـيفة ؛ فاعمـل لأجلـه واسـع باسـمه فهـو الـذي يرسـل إلـيك رزقك الذي تحتاجه ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غايــة حــياتك هــذه ونتيجــتها هــي أن تكــون مظهــرا لتجلــيات أســماء ذلــك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة [٢].

إن اسـم الله (القـدوس) تـتألق تجلـياته فـي حمـلات تطهيـر الكـون الصـباحية بالـندى الـذي يغمـر الكـون، وتصـل قطـراته إلـى البـراعم والـثمار، فتـزيدها خصـوبة وروعة، وتهيئها لمواجهة يوم جديد لا يخلو من أتربة أو شمس حارة.

وأما أثر رحمته فتكاد تلمسها في كل فصل من فصول السنة. . إنها عملية بعث داخلية وخارجية عامة تتجدد بها الحياة كلها :" **فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** " [٣]. إنها أثـواب تلبسها الطبيعة في فصل من كل فصول السنة بحيث تتكيف مع طبيعة كل فصل !!

---

(١) اللمعات ص ١٨٢

(٢) اللمعات ١٨٣

(٣) الروم : ٥٠

وهكذا ... وعلى هذا النحو... تتجلى بقية أسماء الله الحسنى على الإنسان والكون ... تجليات تظهر من خلالها الرعاية الربانية الكاملة.

وثانيهما :إن دور الإنسان في التاريخ الإنساني بل والكوني قد أصبح أكثر وضوحا وألقا وروعة ... إن الإنسان هو (أنا) التي حملت الأمانة الواردة في قوله تعالى : " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً " [1].

وليست الأمانة في المنظور النورسي هي (الإرادة أو التكاليف) كما كان التفسير الشائع) وإنما الأمانة هنا أعظم من ذلك كله ... إنها إظهار بعض تجليات الأسماء الحسنى المطلقة في عالم الإنسان النسبي، حتى يبصر الأحياء إبصار معاينة وتعقل بعض ومضات الفاعلية المطلقة لأسماء الله الحسنى في مرآة هذا الإنسان المحدود النسبي ...فقدرة الله المطلقة تُرى بعض ومضاتها في قدرة الإنسان النسبية المحدودة، وعلم الله المطلق تُرى بعض آثاره في علم الإنسان النسبي المحدود. وهكذا الرحمة والعدل والحلم والكرم إلى آخره.

وهكذا فإن صفات الله سبحانه وتعالى – كالعلم والقدرة- وأسماءه الحسنى كالحكيم والرحيم، لأنها مطلقة ولا حدود لها ومحيطة بكل شيء، لا شريك لها ولا ند، لا يمكن الإحاطة بها أو تقييدها بشيء، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يشعر بها، لذا لا بد من وضع حد فرضي وخيالي لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمها حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها، وهذا ما تفعله (الأنانية) أي ما يقوم به (أنا) إذ يتصور في نفسه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة، وقدرة وعلما [2]. وهكذا ...

---

(1) الأحزاب : ٧٢

(2) بديع الزمان النورسي : الكلمات ص٦٣٦

ويقول النورسي أيضا : فقد اندرجت في (أنا) آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة التي تستطيع أن تدل وتبيّن – إلى حد ما – الصفات الإلهية وشئونها الحكيمة كلها.

أي أن (أنا) لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيرة، كالمرآة العاكسة والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف [1].

لقد عمّق الفقه النورسي دور الإنسان في صناعة الحضارة وأبرز حقيقة الصلة بين الله والإنسان، وقد أصبح هناك معنى أكثر ألقا لمعنى الاستخلاف، وكذلك لمعنى الإنسان الرباني الموصول بالله، ولمعنى تفضيل الله لآدم على الملائكة، بل إننا نكاد بالمنظور النورسي نفهم إضافات جديدة لمعنى تعليم الله آدم الأسماء كلها، فليست هذه الأسماء مجرد مفردات تتصل بعالم الأشياء أو عالم القيم والمعنويات. إنها قد تتصل ببعض القدرات والمواهب الفطرية التي تدفع الإنسان لفتح مغاليق السنن الكونية والاجتماعية وفقهها، واستخدامها لتحقيق وظيفة الاستخلاف، ولإظهار بعض آثار تجليات الأسماء الحسنى، التي لا تطلق في حدودها النسبية على أحد إلا على هذا الإنسان ... الإنسان المستخلف ... الإنسان المرآة ... الإنسان الذي يسمح الله له وحده بأن يحمل بعض أسمائه – مع محدوديته ونسبيتة، فيكون أحيانا ... الإنسان اللطيف الخبير الحكيم الكريم الرحيم ... ويكون في أحيان أخرى الإنسان الجبار المتكبر العظيم ... إنها مكرمة كبيرة ... وإنها لأمانة عظيمة ... لكن هل يؤدي الإنسان (المرآة) حقها ... أم يخون الأمانة ... إنه كان ظلوما جهولا.



---

(١) المرجع السابق ص٦٣٧

عندما تصفو المشارب، ويستقيم المنهج، وتتحد الغايات يلتقي الفكر حتى ولو وقع خلاف في بعض الاجتهادات الجزئية ...

والتقارب الفكري الكبير الذي نلحظه بين العلامة محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) والعلامة بديع الزمان سعيد النورسي (١٨٧٦-١٩٦٠م) هو تقارب من هذا القبيل ...

لقد كان الرجلان ينتميان إلى مدرسة القرآن، ويتتلمذان عليها بصفاء وإيمان وطلب صادق للحق، كما أنهما يعيشان قلقا واحدا هو تخلف المسلمين العملي في مواجهة تقدم الحضارة الأوربية القوىّ.

كما كانا يسعيان إلى غاية واحدة هي بعث المسلمين بعثا قرآنيا يستوعب حضارة العصر، لكنه لا يحمل أوزارها وأوساخها وجرائمها وتضحيتها بالدين والأخلاق.

إن العلامة (سعيد النورسي) يكاد يعلن في كل صفحة من صفحات (رسائل النور) أنه (تلميذ للقرآن) وأن (أستاذية القرآن) هي التي ألهمته كل رسائل النور، وجعلته يبصر الكون والتاريخ والحياة بعين تستوعب الأشياء، لكنها تنفذ إلى ما وراء الأشياء وتفسر (حركة التاريخ) تفسيرا جامعا للعوامل المنظورة المادية والعوامل المعنوية غير المنظورة.

يقول النورسي : القرآن الكريم مرشدنا وأستاذنا وإمامنا ودليلنا في كل أعمالنا [1].

---

[1] انظر المكتوبات ص٤٧٦ في المسألة السابعة من المكتوب الثامن والعشرين نشر سوزلر ط٢/ ١٤١٣هـ، القاهرة.

ويقول : إن القرآن الكريم " المقروء " هو أعظم تفسير وأسماه، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع الذي هو قرآن آخر عظيم (منظور).

نعم إن ذلك الفرقان العظيم الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور وهو الذي ينظر إلى الموجودات التي كل منها حرف ذو مغزى بالمعنى الحرفي ... أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل "[1].

ولئن كانت كلمات النورسي التي اقتبسناها سابقا تؤكد لنا أن النورسي (إنسان قرآني) فتح الله عليه ببصيرة قرآنية سامية وأنه نموذج للمسلم العصري الذي رباه القرآن فأصبح من الصفوة الذين اقتدوا برسول الله (عليه الصلاة والسلام) الذي كان قرآنا يمشي على الأرض. .

ومع ذلك – بل لأجل ذلك – فهموا طبيعة العصر ومدنيته العوراء المادية فهما موضوعيا ... فاعترفوا بحسناتها ...لكنهم حذروا الإنسانية – ولا سيما المسلمين – من بنيتها الإلحادية ومنهجها الدنيوي العنصري اللاأخلاقي.

ولئن كان النورسي هو هذا الرجل القرآني – فإن العلامة محمد إقبال كان – كذلك – ينتمي إلى هذه المدرسة القرآنية نفسها ويبصر – كذلك – بالبصيرة القرآنية كل حقائق الحياة والكون ولا تخدعه (المادية الأوربية العوراء) مع أنه كان يعرف حسنات أوروبا ... وقد عاش في أعماقها ونال شهاداته وشطرا كبيرا من ثقافاته من جامعاتها ...

---

(١) بديع الزمان النورسي الكلمات (كليات رسائل النور) ج١ ص١٤٣ نشر سوزلر ط٢/ ١٤١٢، القاهرة.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي – (رحمه الله رحمة واسعة) – في حديثه عن أستاذة محمد إقبال :

أما الأستاذ الثاني الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، إنه القرآن الكريم الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية، لقد أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ؛ فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار، وقد وصل هذا المهتدي إليه بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب، وكان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور (كولمبس) لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه ... أما الذين ولدوا ونشأوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى كولمبس وأصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئا جديدا.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس ... ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطعامه إياه.

ولم يزل (محمد إقبال) إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه؛ يجوب في آفاقه فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي وأساس السعادة ومفتاح الأقفال المعقدة وجواب الأسئلة المحيرة، وإنه دستور الحياة ونبراس الظلمات ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا القرآن العجيب وفهمه ودراسته والاهتداء به في مشكلات العصر واستفتائه في أزمات المدنية وتحكيمه في

الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواما ويضع به آخرين ... يقول في مقطوعة شعرية له :

إنك أيها المسلم لا تزال أسيرا للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأسا، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة، فوا عجبا قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة [1].

وكما نري فإننا – من خلال هذه النصوص – نشعر أننا أمام نصوص تختلف في الألفاظ لكن مضامينها واحدة ورؤيتها واحدة، ذلك لأن إقبال والنورسي معا قد صفت مشاربهما، واستقام منهجهما، واتحدت غاياتهما الربانية والإنسانية القائمة على التكامل بين الوحي، والعقل والآخرة والدنيا ... لا على التصادم والرؤية الإلحادية المادية العوراء ... وهما من خلال هذا المنهج الذي لن تسعد البشرية إلا به ولن يستأنف المسلمون قيادتهم للحضارة إلا عندما ينطلقون من قواعده – قد استطاعا تقديم أصول وكليات لتحقيق النهضة الإسلامية التي تستفيد من كل ما أفرزته الحضارة الأوربية من إيجابيات علمية ... لكنها تضم إلى ذلك المنهجية الإنسانية الموصولة بالله وبرسالة الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ، لتحقق إنسانية الإنسان التي ترتفع فوق مستوى الذوبان في المادية والشيئية والغرائزية.

وانطلاقا من هذا المنظور القرآني لم تخدعها المدنية الأوروبية، ولم ينسحقا أمام مقولاتها وفلسفاتها، ولم يفقدا موازين العدل وموضوعية الرؤية أمام

---

[1] روائع إقبال - أبو الحسن على الندوي - المجمع الإسلامي العلمي - ندوة العلماء لكهنو - الهند - ص٥١ - ٥٣ ط٤/ ١٤٠١هـ.

أضـــوانها الخادعـة التـــي ســقط تحــت إغــراءاتها الأخســـرون أعمـــالا:"**الَّـذِينَ ضَـلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**" [١].

كـان إقبال بعد أن عـاش فـي أوربـا وسبر عن كثب غـور مدنيتها يسميها بالمدنية الفاجرة الناعمة الملمس التي تقتل الناس وهي تظهر هيامها بهم ... وكان يحذر المسلمين من أن يقعوا فـي حبائل المدنية الأوربية منبهرين بتقدمها العلمـي والتكنولوجـي، ناسين مخططها الجهنمي (العالمي) لإبادة غيرها بطريقة عنصرية.

لقـد أبصـر " إقـبال " عــن خبـرة عمـيقة ومعايشـة دقـيقة جـوانب الضـعف الأساسـية فـي مـركب الحضـارة الأوربـية، والفسـاد الـذي عجـنت بـه طينـتها، لاتجاههـا المـادي، وثـورة أصـحابها علـى الـديانات والقـيم الخلقـية والـروحية فـي عصـر النهضـة، وقـد عـزا فسـاد القلـب والفكـر الـذي اتسمت بـه هـذه الحضـارة إلـى أن روح هـذه المدنـية ملـوثة غيـر عفـيفة، وقـد جـردها تلـوث الـروح مـن الضـمير الطاهـر ومـن الفكـر السـامي والـذوق السـليم، وقـد تسـلط علـيها – رغـم المدنـية الباذخة، والحكومات القومية، والتجارة الرابحة – القلق الدائم.

كمـا نـوه بأسـاس حضـارتها اللادينـي، وبأنهـا عجـنت مـع الـثورة علـى الـدين، فهـي فـي خصـومة دائمـة مـع الـدين والأخـلاق، وبالتالـي فهـي عاكفـة علـى عـبادة آلهـة المادة، وتؤسس في كل يوم لها معبدا جديدا [٢].

إن إشـــعار هـــذه الحضـــارة الغـــارة علـــى الإنســـانية، والفـــتك بأفـــراد الـــنوع البشـــري، وإن شـــغلها الـــدائم الـــتجارة .... إن العـــالم لا يســـعد بالســـلام والهـــدوء البرىء النزيه، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة [٣].

---

(١) الكهف : ١٠٤

(٢) روائع إقبال - أبو الحسن الندوي ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق ص٨٣..

ويقول إقبال في شعره " إن شعار الحضارة الحديثة الفتك بالإنسان الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها. ،ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، ذلك الدهاء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ... إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام، ما لم ينقلب هذا النظام رأسا على عقب [1].

وفي مواجه مشروعات هذه الحضارة الإبادية العولمية كان (إقبال) يحث المسلمين على أن يتمسكوا بذاتيتهم الإسلامية، وقد أدار كثيرا من شعره وفلسفته حول (الذات المسلمة). وإذا كان واجبا على المسلمين- كما يرى إقبال- أن يدرسوا العلوم الحديثة، فمن الأوجب عليهم – أيضا – أن يقرءوا القرآن كأنه أنزل عليهم (كما كان والد إقبال ينصحه) وأن يمارسوا التعاليم الإسلامية في حياتهم.

وبينما رفض إقبال منصب نائب الملك في إحدى مستعمرات بريطانيا حتى لا يعرض امرأته للسفور والاختلاط، فكذلك كان إقبال – باستعلاء المؤمن – يأسف لأنه أضاع بعض سنوات عمره في الغرب (الغرب الذي يعبده بعض المسلمين). . وكان بثقة المسلم يقول : إن أوروبا تنتحر، والروح تموت عطشا في سرابها الخادع ... إنها حضارة شابة بحداثة سنها، والحيوية الكامنة فيها، ولكنها تعاني من سكرات الموت، وإنه إن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار.

---

(1) المكان السابق

إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم، إن العصر يتمخض عن عالم جديد، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكانا للقمار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم) يلفظ أنفاسه الأخيرة [١].

إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ... إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون – حتى في ابتكاراتهم وثوراتهم – عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة.

إن تجارتها قمار، يربح فيه واحد، ويخسر ملايين، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومات التي تتبجح بها أوربا مظاهر جوفاء، ليس وراءها حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ... إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر هي فتوح المدنية الإفرنجية [٢].

إننا نشعر ونحن نقرأ كلمات إقبال والنورسي وكأنهما يتحدثان عن العولمة الأوربية أو الأمريكية المعاصرة التي يخدعون بها الشعوب، بينما يعترف عقلاؤها ومفكروها بأنها تخطيط جهنمي لإبادة أربعة أخماس العالم ...

ونحن قد نشعر أكثر بحقيقة هذه الحضارة عندما نقرأ أفكارهما بوعي ... ثم نقرأ في الوقت نفسه بنود (اتفاقية الجات) المفروضة قهرا على العالم ليزداد الغني غني ويزداد الفقير (وهو معظم الإنسانية) فقراً ... فيتأكد لدينا صدق النورسي وإقبال، وأن (شعر) إقبال كان شعرا إسلاميا يستشرف المستقبل، ويبصر – من خلال المعايشة والرؤية القرآنية– أعماق هذه الحضارة، وحقيقة

---

(١) روائع إقبال، أبو الحسن الندوي ص٨٣ ـ ٨٤

(٢) المكان السابق ص٨٤.

مخططاتهـا تجـاه الإنسـانية !!.. وكـذلك كـان فكـر النورسـي ممـثلا فـي موسـوعته رسائل النور !!.

ولـيس عجيبـاً – مـع اسـتقامة المـنهج وصـفو المشـرب، أن نجـد اتفاقـا شـبه كامـل بـين رؤيتـي محمـد إقـبال وسـعيد النورسـي ... حتـى فـي أسـلوب الـنقمة والكـراهية لفلسـفة أوروبـا ومخططاتهـا الجوهـرية التـي لا تـريد مدنـية أوروبـا أن تحـيد عـنها، مـع كـل مـا عانـته مـن حـروب عالمـية وأمـراض اجتماعـية وأخلاقـية مستعصية !!.

بـيد أنـنا – مـع هـذا القاسـم المشـترك بـين إقـبال والنورسـي – نجـد النّورْسـي أكثـر وضـوحا فـي إنصـاف الجـوانب الإيجابـية للحضـارة الأوروبـية ... وإشـادة بالجـوانب العلمـية والـروحية القديمـة التـي كانـت قـد وفـدت إلـى أوروبـا مـع مسـيحية (عيسى عليه السلام) ...!!

إن النورسـي لا ينكـر إيجابـياتها الواضـحة ... لكـنه- كـذلك- لا يعتـرف لهـا بأنهـا وحـدها صـاحبة الحضـارة، وأن الآخـرين لـم يقدمـوا شـيئا. ،كمـا أنـه لا يتجاهل مخازيها وماديتها ودنيويتها المهلكة ... بالوضوح نفسه.

ولهـذا نجـد (النورسـي) يـزن الحضـارة الأوربـية بموازيـين موضـوعية عادلـة، فـيقدر لهـا إبـداعها العقلـي، وصـناعاتها، ووسـائل اتصـالها التـي قـربت المسـافات، وجعلـت الكـرة الأرضـية قـرية واحـدة. لكـنه فـي الـوقت نفسـه يـرفض أوروبا المتعفنة بالفلسفة والوثنية، الغارقة في الانحلال والحيوانية ...

يقول النورسي : " إن أوروبا اثنتان ":

إحداهما: هـي أوروبـا الـنافعة للبشـرية، بمـا اسـتفادت مـن النصـرانية الحقـة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، وبما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل

والإنصاف، فلا أخاطب في هذه المحاورة هذا القسم من أوروبا وإنما أخاطب أوروبا الثانية، تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاشية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوئها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة [١].

وبالوضوح نفسه، والنقمة نفسها، والتحذير نفسه ...راح النورسي يخاطب الحضارة الأوروبية ممثلة في هذا الشق اللاديني، اللاأخلاقي قائلا لها وللمفتونين بها :

يا أوروبا الثانية (!!) اعلمي جيدا أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرة السفيهة ثم تدعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شلت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود !! ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه، وفي عقلة وفي قلبه بمصائب هائلة ؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد [٢]؟!

لقد طغت أوروبا الثانية – أو كادت – على أوروبا الأولى، وأسوأ ما في الأمر أن العالم الإسلامي يقتبس أكثر ما يقتبس من أوروبا الثانية، وتدفعه أوروبا نفسها بعيدا عن طريق أوروبا الأولى، فتمنع عنه علمها الإبداعي الدقيق، وتغدق على أبنائه أوراقا تسمى الشهادات الجامعية !!.

---

(١) النورسي :اللمعات :ترجمة أ/ إحسان قاسم الصالحي ١٧٦، ١٧٧ط٢ / ١٤١٣هـ، القاهرة.

(٢) اللمعات ١٧٧.

أمـا إذا وجـدت مـن أحـدهم إصـرارا على العلـم الحقيقـي، وقـدرة علـى الإبـداع، فإنهـا تسـعى إلـى أن تحـرم مـنه حضـارته فتغـريه بالمـال والنسـاء حتـى يقبل جنسـيتها ويخدم حضارتها ...!!

إنهـا تمـنع خيـرها الـذي لا شـك فـيه، وتنشـر بكـل الوسـائل شـرها الـذي لا خيـر فيه ...!!

إن النورسـي يعتـرف بهـذا الجانـب الإيجابـي- أوروبـا الأولـى- فـيقول : إن البشـرية التـي أخـذت تصـحو وتسـتيقظ بنـتائج العلـوم والفـنون الحديـثة، أدركـت كـنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا يمكن أن تعيش هملاً بغير دين.

لقـد تـيقظ الإنسـان فـي عصـرنا هـذا، بفضـل العلـوم والفـنون ونـذر الحـروب والأحداث المذهلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع [1].

وعـندما يـتكلم النورسـي بـإطلاق عـن المدنـية فإنـه يقصـد المدنـية بمعـناها الصـحيح (أوروبـا الأولـي) ... أي أوروبـا بمحاسـنها وجوانـبها الـنافعة للبشـرية ولـيس ذنـوبها وسـيئاتها، كمـا ظـن الحمقـى مـن الـناس أن تلـك السـيئات محاسـن فقلـدوها وخـربوا الـديار، وقدمـوا الـدين رشـوة للحصـول علـى الدنـيا فمـا حصـلوا عليها ولا حصلوا على شيء [2]!!

إن أوروبـا الثانـية التـي تكـاد تقضـي علـى أوروبـا الأولـى، تحمـل فـي أحشـائها جـراثيم الظلـم... وجـراثيم الـدمار والفـناء لنفسـها وللبشـرية ... إنهـا تأسسـت علـى خمسة أسس سلبية مدمرة :

---

(١) النورسي : صيقل الإسلام - كليات رسائل النور ص٤٩٤ - نشر سوزلر ط٣/ ١٩٩٩مصر.

(٢) صيقل الإسلام ٥٠١.

فنقطة استنادها : القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

وهدفها وقصدها : منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة : التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

ودستورها في الحياة : الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام : التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

ورابطتها الأساسية بين الناس : العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية : التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

وخامستها : هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائماً : مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخاً معنوياً [1].

ومن خلال هذه الأسس الخمسة المدمرة السلبية التي تقوم عليها المدنية الأوروبية ينتهي النورسي إلى كشف نتائج المشروع الحضاري (العولمي) الغربي تجاه الإنسانية، فيصل إلى النتائج نفسها التي انتهى إليها (إقبال)، وهي إبادة أربعة أخماس البشرية، ومن عجب أنها النتائج التي ينتهي إليها الفكر الاجتماعي والاقتصادي الحديث ... يقول النورسي:

---

(1) النورسي : الكلمات ٨٥٥طبع مصر سوزلر ط٢ / ١٤١٢هـ وانظر : النورسي:صيقل الإسلام ٣٥٧ط٣/ ١٩٩٩مصر "سوزلر" (وفي المقابل يرى النورسي أن أسس المدنية الإسلامية هي خمس أسس: الحق بدل القوة، والفضيلة بدل المنفعة، والتعاون بدل الخصام، والهدى بدل الأهواء، والدين والإيمان بدل العنصرية)

إن معظـم هـؤلاء المدنيـين، لـو قلـبت باطـنهم علـى ظاهـرهم، لـرأيت فـي صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والذئب والخنزير.[١]

" ولأجـل هـذا فقـد دفعـت هـذه المدنـية الحاضـرة ثمانـين فـي المائـة مـن البشـرية إلـى أحضـان الشـقاء وأخـرجت عشـرة بالمائـة مـنها إلـى سـعادة ممـوهة زائفـة. وظلـت العشـرة الباقـية حـيارى بـين هـؤلاء وأولـئك، علمـاً بـأن السـعادة تكـون سـعادة عـندما تصـبح عامـة للكـل أو للأكثـرية، بـيد أن سـعادة هـذه المدنـية هـي لأقـل القلـيل من الناس [٢].

وإذا قارنـا هذا الكلام بما انتهى إليه الباحثان الألمانيان (مؤلفا كتاب فخ العولمة) اللذان ينتهيان إلى النتيجة نفسها، مع أنهما مفكران اقتصاديان معاصران ينطلقان من رؤيـة ليبـرالية (اقتصـادية بحـتة) لكـنها موضـوعية إنسـانية !!... إذا قارنـا كـلام إقـبال والنورسـي السـابق، بمـا انتهـى إلـيه هـذان الباحـثان (مارتـين وشـومان)، أدركـنا كـيف أن المفكـرين المسلمين الكبيـرين ينطلقان من رؤيـة قرآنية موضـوعية تلتقي مع رؤية العقل السـليم العلمـية الموضـوعية، وأدركـنا أيضـاً كـيف أن الله يمـنح المفكـرين المسـلمين المخلصين إلهاماً يستشرف الغيب، ويستقرئ المستقبل، حتى ولو لم تتوافر لديهم وسائل البحث العلمي وأدواته الكاملة، مادامت رؤيتهم قرآنية واعية. .

لننظـر، ولـنقارن مـا يقـوله (مارتـين وشـومان) بمـا انتهـى إلـيه النورسـي وإقـبال. يقـول مـؤلفا كـتاب (فـخ العـولمة) المتـرجم إلـى العـربية فـي أكتوبـر ١٩٩٨م (جمادى الأخرة ١٤١٩هـ)[٣].

---

(١) بديع الزمان النورسي - الكلمات ص٨٥٥ - كليات رسائل النور -١

(٢) صيقل الإسلام ص ٣٥٧والكلمات ٨٥٦ ويقول النورسي وكأنه عالم اقتصادي يعاصر عولمة أمريكا الكذوب : "وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة" الكلمات ص ٨٥٦.

(٣) ضمن سلسلة عالم المعرفة : فخ العولمة : الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية - عدد ٢٣٨ ص ٢٨ - نشر المجلس الوطني للثقافة - الكويت. مراجعة وتقديم د/ رامز زكي - ترجمة د/ عدنان عباس علي.

" لم يعد (أي في ظل العولمة الحديثة) مجتمع الثلثين (الأثرياء، والثلث الفقير) الذي كان الأوروبيون يخافون منه في الثمانينات هو الذي يقرر توزيع الثروة والمكانة الاجتماعية، بل سيحددها في المستقبل نموذج العولمة الجديد القائم على صيغة ٢٠% (يعملون) و٨٠% (عاطلون عن العمل). لقد لاح في الأفق مجتمع الخمس، هذا المجمع الذي سيتعين في ظله تهدئة خواطر العاطلين فيه عن العمل بما يسمونه (Tittytainment) (الصداقة أو المعونة الاجتماعية).

ويقول المؤلفان أيضاً :" إن ٢٠% (عشرين بالمائة) من السكان العاملين ستكفي في القرن القادم للحفاظ على نشاط الاقتصاد الدولي (...) ولكن ماذا عن الآخرين ؟ ماذا عن الثمانين بالمائة العاطلين وإن كانوا يرغبون بالعمل ؟ إن الثمانين بالمائة من الطبقة السفلى ستواجه بالتأكيد ؛ كما يرى الكاتب الأمريكي جريمي ريفكن Jeremy (Refkin) مؤلف كتاب(نهاية العالم) – مشاكل عظيمة، ويعزز رئيس مؤسسة " سان " هذا الرأي مستشهدا بمدير شركته سكوت مك نيلي إذ يقول : إن المسألة ستكون في المستقبل هي : " إما أن تأكل أو تؤكل [١]. To have lunch, or to be lunch

ولهذه النتيجة المؤسفة كل الأسف يرى (مارتين وشومان) أن نموذج الحضارة الذي ابتكره الغرب لم يعد صالحاً لبناء المستقبل [٢]. (وكأنهما كما نرى يتكلمان بلغة إقبال والنورسي نفسها !!) وهما يعتقدان أن الدعاية المفرطة لهذا النموذج كانت جزءاً من الحرب الباردة، ولهذا فإن هذا النموذج الأوروبي الحضاري يجب أن يوضع- بتعبيرهما- في متحف الأسلحة القديمة !! وتسود الآن حسب اعتقاد المؤلفين عملية تحول تاريخي بأبعاد عالمية واضحة ينعدم

---

[١] فخ العولمة ص٢٦.

[٢] فخ العولمة ص ١٢ (المقدمة).

فيها تحت ضغط النموذج الغربي التقدم والرخاء، ويسود التدهور الاقتصادي والتدمير البيئي والانحطاط الثقافي، في ضوء حضارة التنميط [١].. . **حضارة أوروبا وأمريكا. .!!.**

وأعتقد انه من حقنا بعد هذه النصوص التي أوردناها للمفكرين الألمانيين الاقتصاديين (مارتين وشومان) والتي عرفها العالم العربي والإسلامي (وعرف كثيرا من أمثالها من الدراسات الجادة حول تأثير الهيمنة العولمية)..

من حقنا عندما نجد تطابقها الكبير في مجمل الرؤى والحقائق والنتائج مع ما ذكره وانتهى إليه إقبال والنورسي المفكران المسلمان... منذ نصف قرن ... أي مع تفاوت الزمان، وتفاوت الثقافة والمنطلقات والمكان.. من حقنا أن نستنتج عدداً من الحقائق الأساسية، على رأسها المصداقية الكاملة والأحقية المطلقة للمنظور القرآني الذي انطلق منه إقبال والنورسي... فهو منظور (علم اليقين) وهو منظور (دراسة الإيمان الصحيح)..

ومن هذه الحقائق – أيضاً – أصالة المفكرين المسلمين الكبيرين وسلامة منهجهما وموضوعيتهما وتجردهما للحق. . فليس كل من يتعامل مع (الحق) قادراً على فهم دلالاته واستخلاص دروسه، وعلى التعبير عنه بطريقة علمية، وتوضيح الطرق الموصلة إليه والآليات المحققة له. .

لكن إقبال والنورسي نجحا في تقديم الكثير في هذا الطريق !! وأخيراً فإن من الحقائق المستخلصة : التطابق كما نرى في الآراء السابقة بين معطيات الوحي الصحيح، واستنتاجات العقل الصحيح. عندما تصفو المشارب ويستقيم المنهج وتتحد الغايات !!.

---

[١] فخ العولمة : ص ١٢.

المستقبل للإسلام وحضارته الإيمانية :

ومع ذلك فإن الصراع بين المدنية **الغربية** المادية ذات البنية الملحدة، وبين حضارة الإسلام ذات البنية الإيمانية، لابد أن ينتهي بالنصر للإيمان والحق. إذا كان مقدراً في علم الله أن يبقى للبشرية بعض الوجود. فلا وجود إلا بالروح والضمير والعقل والمادة معاً. ولا إنسانية إلا بالوحي والعقل ... والنبوة والعلم.

وبما أن المدنية الأوروبية (والأمريكية) قد مزقت هذا النسيج المتكامل ... واكتفت بالعقل والمادة. فإنها لم تعد قادرة على الاستمرار في القيادة مهما كانت كثافة السحب التي تحجب الحقائق، والقيادة بالتالي لابد أن تعود للإسلام وحضارته... ولابد أن يتقدم المسلمون الصادقون الصالحون لإنقاذ سفينة الإنسانية ...

وفي رأي (إقبال) أن الحضارة الغربية قد أدت دورها، وشاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة، وحان قطافها، وأن العالم القديم الذي حوله مقامرو الغرب إلى حانة للفساد سينتهي قريبا، و أن الإنسانية سوف تتمخض عن عالم جديد. ويعتقد (محمد إقبال) أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس في مكة مركز الأرض، وورث إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشاده. ولذلك يهيب (محمد إقبال) بهذا المسلم النائم، أن يقوم ويمسح النوم عن عينيه، فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعاث الأوروبيون في الأرض، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها، وخربوا العالم وملأوه ظلماً وظلمات، وشروراً وويلات، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ولكن الأوروبيين حولوها إلى خمارة، وبيت فسق ودعارة، ومكان نهب وإغارة، وقد آن لباني البيت الحرام

وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوروبيون، ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، ويبني العالم من جديد [١].

أما النورسي فيحدثنا الحديث نفسه تقريباً . ويقول " إنه بطغيان ذنوب المدنية على محاسنها، ورجحان كفة سيئاتها على حسناتها، تلقت البشرية صفعتين قويتين بحربين عالميتين، فأتتا على تلك المدنية الآثمة، وقاءت دماءً لطخت وجه الأرض برمتها، وسوف تغلبت بإذن الله محاسن المدنية بفضل قوة الإسلام التي ستسود في المستقبل وتطهر وجه الأرض من الأدناس وتحقق أيضا سلاما عاما للبشرية قاطبة .

نعم لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤثر على قرب انهيارها، وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا (الإسلامية) التي ستكون الغلبة لها عن قريب [٢]. !!

إنه استشراف ورؤية مستقبلية أخرى. . يلتقي فيها إقبال والنورسي، مع ما يقوله مؤلفا كتاب (فخ العولمة)..!!.

وقد ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم بعد عديد من النكبات والهزائم والاختبارات، وقد كادت الصحوة تمضي إلى غايتها . لكن الأشواك توضع في طريقها، ويدفع إلى الوقوف ضدها كثير من المنافقين المسلمين ... وبدلا من أن يرشدوها للصواب. يدفعها بعضهم إلى الخطأ ... ويبنون على الخطأ الفردي

---

(١) أبو الحسن الندوي - روائع إقبال ص ١٣٠ - ١٣١ بتصرف. (وهذا لا يعني الاستغناء عن إبداعات العقل الأوربي التي أنجزتها أوربا النافعة - الأولى - مع تسخيرها لخدمة الحق ونشر الإيمان والرحمة والتسامح.

(٢) صيقل الإسلام - بديع الزمان النورسي ص ٥٠١.

والتطرف الشخصي سياسة مواجهة عامة للظاهرة . ومع ذلك فإنهم – كما أشار النورسي – لم يكسبوا الدنيا حين باعوا الآخرة، ولم يرض عنهم الأعداء حين باعوا الإخوان والأصدقاء.

وفي كل يوم يصفعهم الأعداء – بأمر الله – صفعات قوية من الذلة والخيانة ونكث العهود ...تحقيقاً لقوانين القرآن التي لا تتخلف، قال تعالى "وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ "[1].

وقال تعالى : **" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "[2].**

لكنها مرحلة من مراحل الهوان سوف تنتهي بإذن الله وسوف تعقبها إفاقة إنسانية عامة تبحث عن الحق، وتسعى إليه بعد أن يصل الأمر إلى مداه...!!.

وإن لدى الإسلام مؤهلات النصر والتفوق والسيادة ...لديه الحقيقة الإسلامية أستاذ ؛ جميع الكمالات ...ولديه حاجة البشرية الملحة إلى هذا الأستاذ الحقيقي والقائد الحقيقي للمدنية الصحيحة اللائقة بالإنسان.

ولديه الحرية الممزوجة بالشرعية، التي تمزق الاستبداد، وتقضي على الفوضى اللاإنسانية. ولديه الشهامة الإيمانية الممزوجة بالرحمة والصراحة. ولديه العزة الإسلامية التي تعلن إعلان كلمة الله.. بالوسائل المادية والمعنوية معاً.

وكما صدقت توقعات النورسي في الماضي القريب، فسوف تصدق – بإذن الله – توقعاته بانتصار الإسلام في المستقبل القريب ... والبعيد أيضاً..!!. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

---

[1] البقرة : ١٢٠

[2] المجادلة : ١٤ـ ١٥

الأسباب ودورها
في الحركة التاريخية

يؤمن العقل المسلم بالأسباب والسنن الجارية، انطلاقا من إيمانه بالقرآن الذي يوجه إلى الفقه بالأسباب والأخذ بها والاعتماد على تكرارها واستمرارها... قال الله تعالى " ... فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً " [١]، لكن العقل المسلم- في الوقت نفسه- يؤمن بأن هذه الأسباب محكومة بهيمنة الله القادر على إبطالها وإخلافها، وتعّد معجزات الأنبياء كلها، وكرامات الأولياء الصادقين كلها، ضربا من الاستعلاء على الأسباب، والتلقي المباشر من الله، بأمر الذي يقول للشيء كن فيكون " ....هكذا أبطل الله الأسباب مع إبراهيم في النار عندما قال الله لها " يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم " ومع موسى في العصا، ومع عيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بإذن الله، ومع يونس عندما انقطعت به كل الأسباب المادية وصار لقمة في بطن الحوت فلم يجد إلا الاتصال المباشر بخالق الأسباب قائلا " لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ "

كانت مشكلة الأسباب التي تعود إلى (قوانين الحركة الداخلية) للفعل من أكبر عوامل انحراف الفكر البشري مع بزوغ فجر النهضة الصناعية في أوربا، حتى أنها كانت تعد عند بعضهم بداية عصر الإلحاد، فلقد ظن بعضهم أن اكتشاف (قوانين الحركة الداخلية) ومعرفة أسرارها وكيفية التعامل معها تغني عن اللجوء إلى الإيمان بفاعل غيبي غير منظور. وهكذا ذهب الماديون إلى إعطاء القانون أو السبب قدرة الفعل الذاتي، مع أن القانون لابد أن يكون وراءه مقنن، كما أن السبب لابد أن يكون وراءه مسبِّب !!

وهذه القوانين لا تسمح (عقلا) بقطع نسبة الحادثة إلى إرادة الله الكلية واختيار الله المطلق وحاكميته النافذة التي تمثلها سننه الجارية في الوجود .... فإن أصحاب هذا الفهم

(١) سورة فاطر : ٤٣.

العابث يشبهون هؤلاء الذين يحيلون الانتصار الذي تحرزه فرقة في الحرب إلى طبيعة نظام الجندية، وقانون العسكرية ويتجاهلون دور العقل الفاعل الذي يتمثل في قيادة الجيش وفي الجنود الذين حاربوا [١].

والحق أن الفكر الإسلامي كان واعيا كل الوعي ببطلان هذا الزعم، ومنذ الصدام بين الحضارتين الإسلامية والأوربية وعبور فترة الانهزام المفاجئ والمفكرون الإسلاميون يدحضون هذه المقولة التي اتكأ عليها الماديون بعامة والماركسيون بخاصة.

وكانت لجهود جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد إقبال، ومحمد فريد وجدي ثم وحيد الدين خان، ومحمد قطب، وسيد قطب، ومحمد الغزالي، وعشرات غيرهم من الأعلام المجاهدين. . كانت لجهودهم آثارها الإيجابية الطيبة.

بيد أن ما يقوله (النورسي) يقف نمطا متميزا غير مكرور في هذا السبيل ... إنه لا يكتفي بالرد العلمي، ولا يبسط النظريات المضادة، ولا بإخراج المحترزات التي تشبه الاستثناءات التي تحبط فاعلية القانون بحد ذاته. . بل إنه ليتبع الأمور بتفصيل شديد، وبتصوير رائع لصفحة الكون، وكأنه يبصر الحركة المباشرة التفاعلية بين السماء والأرض ويرى الصلة المباشرة بين المهيمن والأفعال. . ويرى الموظفين الذين يدبرون حركة القوانين، ويرى الحجم الحقيقي والوظيفية الحقيقية (المجدودة) للقوانين، أمام قدرة الله المطلقة. . وإنها لوظيفة أساسية ومهمة، لكنها لا تعدو أن تكون جسراً صغيراً أو حاجباً ضعيفاً أو ستاراً رقيقاً تحركه قدرة الله.

يقول بديع الزمان :

أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب !

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات. ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ٢٠٠ (الكلمة الرابعة عشرة -) نشر شركة سوزلر بالقاهرة ط ١٤١٢هـ.

اعلم أن الأسباب ليست إلا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا ويقتضيان الاستقلال.

فالأسباب إذن إنما وضعت لتبقى عزة القدرة مصونة من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ أن لكل شيء جهتين- كوجهي المرآة- أحدهما جهة الملك الشبيهة بالوجه المطلي الملون للمرآة الذي يكون موضع الألوان والحالات المختلفة، والأخرى " الملكوت " الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر- أي جهة الملك- هناك حالات منافية ظاهرا لعزة القدرة الصمدانية وكمالها، فوضعت الأسباب كي تكون مرجعا لتلك الحالات ووسائل لها. أما جهة الملكوت والحقيقة فكل شيء فيها شفاف وجميل وملائم لمباشرة يد القدرة لها بذاتها، وليس منافيا لعزتها، لذا فالأسباب ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر [١].

وليس الأمر في الأسباب هكذا فحسب، بل إن هناك حكمة أخرى للأسباب الظاهرية وهي الحيلولة دون توجيه الشكاوى الجائرة والاعتراضات الباطلة إلى العادل المطلق جل وعلا. وبالتالي فقد وضعت الأسباب لتكون هدفا لتلك الاعتراضات وتلك الشكاوى، لأن التقصير صادر منها، ناشئ من افتقار قابليتها.

ولقد روي لبيان هذا السر مثال لطيف ومحاورة معنوية هي :

إن عزرائيل عليه السلام- قال لرب العزة :

" إن عبادك سوف يشتكون مني ويسخطون علي عند أدائي لوظيفة قبض الأرواح، فقال الله سبحانه وتعالى له بلسان الحكمة : " سأضع بينك وبين عبادي ستائر المصائب والأمراض لتتوجه شكاواهم إلى تلك الأسباب ".

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي : كليات رسائل النور - الكلمات. ص ٣٢٦، ٣٢٧

وهكذا، تأمل ! كما أن الأمراض ستائر يرجع إليها مما يتوهم من مساوئ في الأجل، وكما أن الجمال الموجود في قبضة الأرواح- وهو الحقيقية- يعود إلى وظيفة عزرائيل- عليه السلام- فإن عزرائيل- عليه السلام- هو الآخر ستار لأداء تلك الوظيفة وحجاب للقدرة الإلهية، إذ أصبح مرجعا لحالات تبدو ظاهرا أنها غير ذات رحمة ولا تليق بكمال القدرة الربانية [١].

أيّ تصور رائع هذا ؟ وأي شفافية وجدانية وعقلية تقف وراء هذا الفقه العالمي ؟ !!

لقد قدَّم بديع الزمان معنى جديداً للأسباب ووظيفة لم يكن أحد قد التفت إليها، فلم يكن يدور بخلد أحد أن هؤلاء الوسطاء من ملائكة ومن أسباب، إنما جئ بهم ليتحملوا سخافات البشر، ويكونوا أهدافا تُرمى، وقد ينال منها، وقد تؤثر، وقد لا تؤثر ؛ فليست أحكامها قاطعة لا تتخلف، أما إرادة الله فلا بد من أن تنفذ فورا إذا اتجهت لشيء لأنها ليست قابلة للتخلف، وليس فوقها شيء {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [٢]

والحق أن هذا البيان النورسي الرفيع قد نجح في أن يبطل كل الحجج التي تعتمد عليها المادية في تأليهها للأسباب ونشرها لعقيدة عبادة المادة والكفر بالله بين الناس. فلا قانون- إذن- إلا وهو جزء من حكمة الله ويستطيع الله أن يبطله، كما أبطله في المعجزات والخوارق، ولا طريق- إذن- لفقه حركة المجتمعات وتطورات الوقائع إلا بالرباط بين النتائج الظاهرة والقوانين المفسرة وخالق القوانين، والمهيمن عليها سبحانه وتعالى...

---

(١) السابق نفسه : ص: ٣٢٧

(٢) سورة يس : ٨٢، ٨٣

الإنســـــان والكـــون

بين الإيمان العلمي والإلحاد الفكري

في الـــرؤيـــة النـــورسيـــة

توطئة

لكي ندرك قيمة التأصيل الإيماني في فقه الكون عند بديع الزمان النورسي نلقي بعض الضوء على التيارات الفكرية المعاصرة.

ونستطيع القول بإجمال إنه توجد في الساحات الفكرية المعاصرة تيارات ثلاثة تؤرخ للعلم وتطوره، فأما أولها: فهي التي تتكلم عن العلم بكثير من الحياد؛ فلا تربطه بأفكار مسبقة ولا تزعم أنه يكفي الإنسان وحده، بل تكاد تعترف- ضمنا وليس صراحة- بأن الإنسان يحتاج مع العلم إلى الدين والأخلاق.

وهناك مدرسة ثانية قوية- وإن لم تكن كبيرة الحجم- تؤمن بأن (العلم يدعو إلى الإيمان) وبأن (الإيمان يتجلى في عصر العلم)، وبأن (الإنسان ذلك المجهول) لا يعلم مفاتيحه إلا الذي خلقه، ولن تتحقق سعادته إلا بخضوعه للمنهج الرباني الذي أنزله الله؛ الذي يعلم من خلق، وهو- وحده- اللطيف الخبير!!

وهناك منهج ثالث متهافت، لكنه مدعَّم من أبواق الإعلام الصهيونية والإلحادية في العالم، ويحاول أصحاب هذا الاتجاه الوقيعة بين العلم والدين، ويزعمون أن الإنسان يستطيع أن يقوم وحده، وأنه ليس في حاجة إلى قوة أخرى تساعده. وهؤلاء يحاولون أن يخفوا وجوههم الحقيقية في بعض ما يكتبون، فيستعملون مصطلحات غائمة، لا يُدرك ما وراءها إلا الذي يعرف أهدافهم وأساليبهم.

فمن المصطلحات التي يتسترون خلفها رفضهم مبدأ (العلّية) الكونية تحت راية أن نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا) ترفض اضطراد الطبيعة (وكأنه لا

قوانين)، وبالتالي ترفض العلّية أو الثبات في القوانين، وتؤمن بمبدأ الصدفة، أو كما تقول الدكتورة / يمنى طريف الخولي، في كتابها الذي أصدرته سلسلة (عالم المعرفة) بالكويت تحت عنوان " فلسفة العلم في القرن العشرين " تقول الدكتورة في كتابها هذا [1]:

" لقد ارتدت المصادفة ثوبا قشيبا، وتخلصت من أدران جائرة، لحقت بها في عهود يقين العلم الحتمي، الذي كان يفسر المصادفة والاحتمال تفسيرا ذاتيا، أي كان يرجعهما إلى جهل الذات العارفة وعجزها عن الإحاطة بعلل الظاهر. علمتنا الميكانيكا المَوْجِيَّة ومعادلات " إيرفين شرودنجر "، إن المصادفة والاحتمال تفسيران لصميم طبيعة الظاهرة موضوع الدراسة، لقد أصبح الاحتمال موضوعيا".

وتتابع الدكتورة تحليلها (اللاعلمي). . فتقول : " والمحصلة أنه قد تبخر اليقين في عالم العلم، حتى شاع القول الدارج : إن العلماء ليسوا على يقين من أي شيء، ويكفي أن العوام على يقين من كل شيء ".

وكلام الدكتورة المذكور مجرد نموذج من نماذج التعمية والتورية والألفاظ الزنبقية، التي تخفي وراء مضامينها الجحود بالله، والإيمان بالعبثية والصدفة والاحتمال واللاقانونية في الكون؛ بديلا عن (العناية) و(الرعاية) و(القانونية) و (السببية) و(العلّية) التي يحكم بها الكون ويسيره بها إلى أن تأتي أوامره بانفراط عقد الكون والحياة، فيقول للجبال الراسيات : كوني صوفا منفوشا، ويقول للسماء : أقلعي، ومن ثم يُبَعْثَر ما في القبور ويُحَصَّل ما في الصدور !!

---

(1) ص : ٢٣٠

والحق أن العلم الحق غير الموظف لإغراض أيدلوجية قد أسقط الماركسية، كما أسقط هذه الفلسفة العبثية التي تحاول أن تظلم العلم، وتقوده إلى الصدام مع الحقائق الكبرى، التي يقوم الكون عليها : " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ " [1].

ولقد أصبحت الحضارة الأوربية نفسها تئن من هذا الاتجاه ويرفضه علماؤها الكبار وفلاسفة تاريخها . وقد ظهر هذا الاتجاه جليا في النصف الثاني من القرن العشرين كله، لدرجة أن الكاتب الهندي الكبير " تقي الدين الأميني "- رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكرة- (رحمه الله) رصد ظاهرة انهيار الفلسفة الإمادية العبثية للعلم في كتاب كامل سماه : (عصر الإلحاد : خلفيته التاريخية ونهايته)، كما أن الكاتب الهندي الكبير "وحيد الدين خان " دحض هذا الاتجاه في كتابيه المعروفين "الإسلام يتحدى " و" الدين في مواجه العالم ".

وفي عالمنا العربي دحض هذا الاتجاه- أيضا- مفكرون كثيرون على رأسهم العلامة نديم الجسر- مفتي طرابلس لبنان- (رحمه الله تعالى). وذلك في كتابه " قصة الإيمان بين الفلسفة والدين والعلم ".

فما بال بعض أدعياء العلم والفكر في مشرقنا المبتلى ما يزالون يجلسون على المائدة الإلحادية والعبثية، مع أن فساد أطعمتها قد وضح لكل ذي عقل وقلب ؟ !!

إن نظريات إلحادية كثيرة تلفعت برداء العلم الغربي كالتطورية الدرونية، والجنسية الفرويدية، والوضعية الكونتية، والمادية الماركسية- قد أسقطها العلم نفسه. .

---

[1] سورة المؤمنون : الآية ١١٥.

نعم أسقطها العلم الغربي والشرقي على السواء. .

فما بال بعضنا يبقى متخلفا حتى في التبعية، ولا يعجبه إلا الطعام الرديء المغشوش (اللاعلمي واللاعقلاني). .والعلم بريء من ذلك كله.

والحق أن جهود النورسي في مجال تعميق الإيمان كونيا وعلميا تعد أقوى ما قدمه العقل المسلم في القرن الرابع عشر الهجري.

الإيمان العلمي. . رسالة الأنبياء:

في البداية نورد هاتين الآيتين الكريمتين من كتاب الله، ودلالتهما لا تحتاج لبيان، أما أولاهما فقول الله تعالي " **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** "[١]. وأما الآية الثانية فقوله تعالى على لسان الكافرين :" **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** " [٢].

ثم نقول :

لقد وفر الأنبياء- عليهم السلام- بدءا من آدم، وانتهاء بمحمد- خاتم المرسبين- (وعددهم في رأي بديع الزمان سعيد النورسي يصل إلى ١٢٤ألف نبي) على الإنسان جهودا كبيرة كان من الممكن أن يقضيها في التيه العقلي والتخبط الفكري، حين علم الأنبياء الإنسان أن لكل شيء سببا وغاية، وأن وراء كل سبب مسببا، ووراء كل صنعة صانعا وأن هذا الكون- بالتالي- ينعم برعاية صانع خبير، عليم حكيم؛ يدير حركته وفق قوانين، ويدفعه- والإنسان جزء منه- لغايات مرسومة. .

---

(١) سورة الروم : الآية ٥٦

(٢) سورة الملك : الآية ١٠

ومع أن تعاليم الأنبياء كثيراً ما كانت تتعرض للضياع والتدخلات البشرية، فإن عقل الإنسان- في عصور الضياع هذه- كان كثير التساؤل والحيرة والتأمل.

إن حركة الكون المكرورة أمامه من ليل ونهار وشمس وقمر ونجوم وعواصف وزلازل، لاشك ستدفعه إلي التساؤل :

١- من يُصنع هذا ؟

٢- وكيف يُصنع ؟

٣- ولماذا يصنع ؟

وفي الواقع البشري الاجتماعي والفردي يجد الإنسان نفسه محاصراً بمجموعة من الظواهر التي تشبه الظواهر الكونية، في ضرورتها وتكرارها.

- فحاجة الإنسان إلى الطعام حاجة أساسية ومتجددة لا تنتهي.

وحاجة الإنسان إلى الشراب.

وحاجة الإنسان إلى النوم. .

وحاجة الإنسان إلى اللباس والمسكن. .

فكل هذه حاجات فردية تجعل الإنسان يتساءل : هل هو مجموع هذه الحاجات ؟ وهل حياته لا تخرج عن نطاق إشباع هذه الجوانب ؟

وعندما يصل الإنسان إلى سن البلوغ، ويندمج اجتماعيا، تظهر في حياته حاجات أخرى.

حاجته إلى الزواج والأولاد.

حاجته إلى البيئة.

حاجته إلى المجتمع.

فربما تساءل الإنسان في مرحلة معينة : هل هو رهن هذه الحاجات ؟ وهل هو كائن أسري أو بيئي أو اجتماعي ؟ وهل يكفي إشباع هذه الجوانب- بعد الحاجات الفردية- لضمان مسيرة الإنسان في الحياة ؟ لكن الإنسان عندما تكتمل له حاجاته الفردية، وحاجاته الاجتماعية سيشعر بحاجة ملحة إلى نوع آخر من الحاجات.

فهذا الإنسان يتميز عن الكائنات الأرضية الأخرى بأنه يحمل (روحا واعية) ذات تطلع دائم إلى الأشواق العليا. . وإنها لتحس بالسأم والملل- حتى بعد إشباع سائر الجوانب- إذا لم تحقق إشباعها في الجانب الروحي.

فهل الإنسان كائن روحي ؟ على أساس أن هذه هي ميزته التي ينفرد بها عن سائر المخلوقات الأرضية الأخرى التي تشاركه بقية حاجاته الفردية والاجتماعية ؟

لقد أدرك الإنسان هذا منذ ظهر، ومنذ غرست الأديان السماوية- في فطرته ووعيه- هذه الحقيقة الأزلية، وأزالت عنها- بين الحين والحين- كل ما يطرأ عليها من تحريف وتشويه.. ولئن كان الإنسان قد أدرك هذا، فإن هذا الإدراك القائم على أن الله هو الصانع وهو الخالق، ليس كافياً للإجابة عن الأسئلة الملحة التي تطرح نفسها على الوعي البشري الموصول.

إن الإنسان يدرك حاجته اليومية المتجددة للطعام والشراب والهواء والماء والملبس والمسكن، ثم يدرك حاجته الاجتماعية التي يقوم على أساسها كيانه

الاجتماعي وبقاء نوعه . فإلى أي مدى يصل الدور الذي تقوم به هذه الحاجات في استمرار حركته ونموها، وفي ضمان تفاعله مع ما حوله ؟

وهل هذه الحاجات هدف في حد ذاتها؛ تنتهي رسالته إذا حققها ؟

وأهم من ذلك كله أنه يريد أن يفهم نواميس الخالق سبحانه وتعالى التي أخضع لها- سبحانه- الكون والإنسان والمجتمع، لأن فهم الإنسان لهذه النواميس أمر ضروري بالنسبة له، سواء في مستوى حياته العملية؛ الرعوية أو الزراعية أو في مستوى تحقيق تقدمه الحضاري.

وإن ما أعطته رسالات السماء في تفسير حركتي الكون والمجتمع، إنما هو إطار كلي، ترك للعقل البشري أن يقوم فيه بالفهم والتفسير، فهذا هو مجال الاختيار، وشأن (تفسير التاريخ) هنا شأن بقية المجالات، التي طرقها الوحي الكريم، فثمة قوانين كلية حاكمة وضابطة، وثمة مساحة للاختيار الإنساني واسعة وفسيحة.

فحتى في علاقة الإنسان المخلوق بالله الخالق ثمة أوامر تكوينية فطرية، وثمة أوامر تشريعية وعبادية، وهناك- في المقابل- مساحة لحرية الإنسان هي مناط الثواب والعقاب، في تفاعلها- إيجابا أو سلبا- مع القوانين الفطرية والكونية والتشريعية.

وفي ظل هذه الرؤية الإسلامية لعلاقة الإنسان بالكون والأوامر الإلهية الكونية والتشريعية، يتجلى حظ الإنسان المتاح له من الحرية والإرادة. وتتضح (المعادلة) الإنسانية المتوازنة، القائمة على تقنين الحرية من جانب، ورفض نظريات أو أيدلوجيات الحتمية الجبرية من الجانب الآخر.

والحق أن المذاهب (الجبرية) أو (الحتمية) قد اهتزت حتى في مجالها الطبيعي المادي، وإننا لنجد مفكراً كالأستاذ (أوبجتون) يصور لنا هذا الاهتزاز بأسلوب حاسم

فيقول : (لا بد لي أن أوضح أن النظرة العلمية للمذهب اللاحتمي لا تعني أن هناك أحيانا استثناءات للقانون الحتمي، لكنها تعني أن كل ظاهرة لاحتمية بدرجة كبيرة أو صغيرة).

ويقول (أوبجتون) أيضاً : (طالما أن الحتمية قد أزيحت من وضعها الذي يبدو منيعاً في علم الطبيعة؛ فإن من الطبيعي أن نشك في قولها حين تزعم أنها اتخذت لنفسها وضعاً مؤكداً في مناطق أخرى من الخبرة) [1].

وليس أروع من القرآن الكريم، وهو يرفض تلك الحتمية الجماعية، أو تلك الجبرية الفردية فيوجه النظر إلى أنه لاحتمية هنا ولا هناك، وإلا انعدم معنى (المسئولية) وانعدم- بالتالي معنى الثواب والعقاب.

يقول القرآن الكريم :

" تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ "[2].

" قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ "[3].

أجل. ليس الإنسان مجبراً أو آلة تحركها أية عوامل، وإنما هو- قبل أي مؤثر- المسئول الأول عن صناعة الحضارة، وهو المحرك الأول للحضارة في مرحلة نموها واستمرارها وازدهارها.

إنه (الخليفة) على هذا الكوكب، وإن التاريخ إنما هو شأنه، سواء كان فرداً. أو فرداً ممتازاً في هيئة بطل، أو جماعة آمنت بمبدأ إيجابي، ومتى

---

(1) د/ زكي نجيب محمود : الجبر الذاتي : ص ٢٤٥، ٢٤٦، طبع الهيئة المصرية العامة بالقاهرة سنة ١٩٧٣م. والحتمية التي يرفضها الإسلام هي الحتمية التي تؤله الأسباب والقوانين ، فالله قادر على إلغاء فاعلية الأسباب مع تقدير الإسلام للأسباب بصفة إجمالية ، وهي (السنن الكونية والاجتماعية) التي تعبّد الله بها المسلمين كجزء من مشيئته وسننه وعدله.

(2) سورة البقرة : الآية ١٣٤.

(3) سورة الأنعام : الآية ٤٧.

تزايد إقبال الأفراد والشعوب على الطاعة لإرادة الله تحسنت الأمور، أي أن مقياساً أساسياً من مقاييس التقدم الحضاري هو المجاهدة في سبيل التقدم [1]، وفي النهاية فإن كل شعب سيحصل على ما يستحق بالعدل الإلهي !! لكن ذلك لا يعني أن الإنسان هو وحده في هذا الكون، وأنه حر في أن يحطم كل (نظام) ويتمرد على كل أصول عقلية أو قانونية، كسائق السيارة المجنون الذي يعتقد أن إشارات المرور إنما هي قيود وأصفاد، ويرى أن تحقيق حريته يقتضي حرية الانفلات من هذه القواعد المرورية.

إن هذه (الحرية الفردية اللامبالية) مرفوضة، لأنها تعني العشوائية التي هي سلب للعقل والقانون، ومن الواضح أن هذا المذهب. (الحرّ) إذ يمارس (حرية اللامبالاة) هذه، إنما يقضي على(حرية المجموع) من جانب، ويقضي على المسئولية الخلقية من جانب آخر.

" اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ " [2].

"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً"[3].

" وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ" [4].

كما ينبغي للإنسان- كذلك- ألا ينسى أنه محكوم بسنن ونواميس إلهية تفوق طاقاته وقدراته جميعاً، وبدونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه وتعالى من تسيير الكون،

---

(1) انظر ويد جيري : التاريخ وكيف يفسرنه : ص ٩٤- لبنان.

(2) سورة الزمر : الآية ٦٢، ٦٣.

(3) سورة الرعد : الآية ١٥.

(4) سورة الروم : الآية ٢٦. س

والخلائق جميعاً وفق طرائق محدودة تئول بهم إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق، ورفعتهم إليها إرادته التي لا راد لها [1].

الكون : صداقة للإنسان ودلالة على الخالق :

وإذا كان هذا هو طبيعة العلاقة بين قدرة الله وإرادة الإنسان في الحدث الحضاري فما حقيقة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، التي هي ركن أساسي من أركان العملية الحضارية ؟

والحقيقة أن مذاهب كثيرة ومفكرين كثيرين لم يوفقوا في رسم حدود العلاقة بين الإنسان والطبيعة .... إن الطبيعة التي يطلق عليها بعضهم (المادة) ويطلق عليها آخرون (التراب) ليست ركنا مقابلاً ومضاداً للإنسان. . إنها لا تفرض عليه (الصراع) معها لكي يصنع حضارة، كما يذهب إلى ذلك أصحاب التفسير المادي، والمثالي، وبدرجة كبيرة أصحاب التفسير الحضاري، وبعض المفكرين المسلمين.

فحتى تعبير (أرنولد توينبي) الشهير : (التحدي) يمثل شحنة مكثفة لا تمثل حقيقة العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وإن كانت أفكاره صحيحة بالجملة !!

إن الطبيعة بالنسبة للإنسان هي مجاله، وهي بيئته، وهي مخلوقة من أجله، وإن جمالها وأهميتها وعطاءها الحق لن يتجلى إلا إذا سخرها الإنسان وأعمل فيها عقله ويده، إنها من غيره جماد وفوضى وتدمير أحيانا.

لقد رفض القرآن الكريم التصور العبراني للعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وهي علاقة الرهبة والخوف، لأن الطبيعة في التصور القرآني قد خلقت من أجل الإنسان، كذلك فإن اللعنة التي تحل بالأرض في العهد القديم بسبب خطيئة

---

(1) د / عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي ص١٨١- لبنان - المكتب الإسلامي.

آدم وحواء حين أكلا من الشجرة المحرمة لا تتفق مع وصف القرآن للأرض بأنها مستقر ومتاع إلى حين [1]، بل إن الإنسان في القرآن الكريم هو المحور والغاية في عالم الطبيعة، ومن أجله سخرت الكائنات كلها. يقول تعالى :

" وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ" [2].

"وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ" [3].

" وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً" [4].

" أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ" [5].

وكل ما يخيل لبعضهم أنه صراع بين الإنسان والطبيعة، ليس إلا من باب التهذيب مثلما يهذب الإنسان أبناءه لينتجوا ويثمروا- كذلك فإن الإنسان يتولى الطبيعة بالتهذيب، لكي تضع إمكاناتها وطاقاتها تحت تصرفه، ولكي تعطي وتثمر، وتتعاون معه في إنجاز الحدث الحضاري. . إنها الجسم، وهو العقل، إنها الأنثى الودود، التي لا تبخل بالإنجاب - بإذن الله- متى تم التفاعل الحضاري، أو حسب تعبير (توينبي) متى تمت (الاستجابة) المناسبة.

فالأمر - إذن- ليس (صراعاً) بل ليس (تحدياً) وإنما هو (تدافع) كريم، كذلك التدافع والتدلل والتمنع الذي يتم بين كل أنثى وذكر. . إنه- في الحقيقة- ليس تحدياً ولا صراعاً، وإنما هو (استثارة) لكل الطاقة المذخورة !!

---

(1) انظر في تفصيل ذلك كاصد الزبدي (الطبيعة في القرآن الكريم) رسالة ماجستير (نقلاً عن الدكتور عفت الشرقاوي) أدب التاريخ عند العرب ص٢٠٧.

(2) سورة إبراهيم : الآية ٣٢.

(3) سورة إبراهيم : الآية٣٣.

(4) سورة النحل :الآية ١٤.

(5) سورة لقمان: الآية ٢٥١.

ونحب هنا أن نبين أن كلمة (تدافع) ليست من نوع (الصراع)، ولاسيما بمحتواه الفلسفي الجدلي، فإن (التدافع) ليس إلا قمة الاستثارة ليبقى- في النهاية- ما ينفع الناس :

" وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ " [1].

"أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ " [2].

" بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ " [3].

وكيف يكون الأمر (صراعا) مع أن (الأرض) في الإسلام إنما جعلت كلها مسجداً ؟ !!

وكيف يكون الأمر صراعاً مع أن (الزمن) هو (الدهر) ولا يجوز أن يسب المسلم الدهر ؟!!

وإذا كانت الحرية المسئولة- بمعنى من معانيها- تعني انعدام القيود، فإن(الحرية المطلقة) تعني أن تكون حراً من جميع القيود : أي أن تتحرر من الأشياء الخارجية، ومن الطبيعة، ومن الناس من حولك، ومن القانون، ومن العقل، ومن الوراثة، لكنك- من ناحية أخرى- لو تحررت من كل شيء لكان معنى ذلك أنك لا شيء، فاللاشيء أو العدم هو وحده الحر حرية مطلقة.. فالحرية المطلقة هي العدم المجرد، ومن هنا فإذا كان الإنسان بالموت يتوقف

---

[1] سورة البقرة : الآية ٢٠.

[2] سورة الرعد : الآية ١٧.

[3] سورة الأنبياء : الآية ١٨.

عن أن يكون شيئا، فإنه- بالموت أيضا- يكون لأول مرة حرا حرية مطلقة، لأنه سيصبح لا شيء [١].

ولهذا- فعندما أطلق الله للإنسان حريته- أحلقها في حدود الحفاظ على نظام (المرور الكوني) بإشاراته وعلاماته التي تحول دون الصدام والموت المحقق. فلا جبر ثمة ولا حتمية، وإنما نظام يسمح لكل الحريات التي قد تتصارع بالحركة الحرة المأمونة. . (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) من غير أن تنضبط حركته بقوانين وسنن، وأوامر ونواه. . كلا. . إنه لن يترك هملا يرعى كما ترعى السوائم، بل لابد له من قيود وضوابط يرعى في حدودها ويتحرك في مجالها [٢].

ويشير الفيلسوف الأمريكي (توماس بين) إلى ضرورة هذه القوانين الضابطة فيقول : " إن الطبيعة وهي مسيرة بالقوانين التي استنها الله الذي يريد بخلقه خيرا، والإنسان جزء من الخلق- من أجل ذلك لزم أن يكون الإنسان في حال كماله مسيرا بقوانين أخلاقه نحو خيره، فكما أن للطبيعة قوانينها، فكذلك للإنسان قانون " [٣].

والقرآن الكريم إذا تحدث عن سنن الله في المجتمع الإنساني، فإنه يتحدث عنها كحلقة في سلسلة النظام الكوني القائم على التناسق بين عناصر الكائنات الوجودية تناسقا يؤدي به عملها الذي تقتضيه طبيعة وجودها [٤]، فلا مندوحة

---

(١) نقلا عن : زكي نجيب محمود : الجبر الذاتي ص ٢٥٢بتصرف.

(٢) عبد الكريم الخطيب : القضاء والقدر ص٥٤، طبع دار المعرفة بيروت.

(٣) زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجيد ص٤٣، وانظر المرجع السابق ص١١٩.

(٤) محمد الصادق عرجون : سنن الله في المجتمع ص٢٨.

من أن يهيمن الله على الحركة العامة للكون،ولا مندوحة للإنسان من أن ينسق خطواته على أساس الانسجام مع هذه الهيمنة الإلهية.

إن الله ليس (ساكنا) أو (متفرجا) على مباراة الكون من خلال شاشة مرئية. إن إلهاً من هذا النوع الإغريقي، ليس إلهاً في الحقيقة وفي الإسلام، فإن الله (فعال) و(قدير) و(مهيمن) و(خبير) و(محيط). ولا ينبغي للإنسان- في التفسير الإسلامي- أن يغفل- ولو لحظة- هذه الهيمنة الإلهية الشاملة على كل ما في الكون ومن في الكون.

"وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ " [1].

وكيف يكون الأمر صراعاً مع أن الكون كله يسبح بحمد الله ويتجه إلى عبادته ؟!!

وكل ما في الكون- ابتداء- إنما خلقه الله ومهده لكي يكون في خدمة الإنسان، خليفة الله- فما ضرورة الصراع إذن ؟

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [2].

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [3].

---

[1] سورة النحل : الآية ٤٩.

[2] سورة البقرة :الآية ٢٩.

[3] سورة فصلت : الآية ٩- ١٢.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [1].

ومع أن الدكتور عماد الدين خليل الذي تصدى بجرأة وشجاعة لمحاولة (التفسير الإسلامي للتاريخ)- قد لمس- بأسلوبه الأخاذ- بعض ملامح هذه العلاقة الكريمة التي تربط الإنسان بالطبيعة، إلا أنه- أيضاً- ذهب إلى أن هناك (صراعاً) بين الإنسان والطبيعة، بينما نلمس في أسلوب المفكر الكبير بديع الزمان سعيد النورسي وتلميذه الكبير (فتح الله كولن) ابتعاداً بدرجة كبيرة عن استخدام مصطلح (الصراع)- بهذه الشحنة المكثفة- عند حديثهما عن العلاقة بين الكون والإنسان !!

إن الدكتور عماد الدين خليل يقول- أولاً- في تصور العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

إن أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي الحوار الفعال بين الإنسان والطبيعة. . هو يسأل وهي تتمنع عن الإجابة، وهو يسعى إليها متسائلا قلقاً، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقى إليه بكنوزها. . (وهذه نقطة اتفاق لا خلاف عليها !!)

ومعنى هذا أن على الإنسان أن يرفض الكسل والقعود، وألا يتخلى عن السعي الهادئ المطمئن إلى رزقه وتأمين حياته. . وفي القرآن الكريم مئات

---

[1] سورة الزخرف : الآية ١٠- ١٣.

الآيات والإشارات تنفخ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم، وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلا بالسعي، والكدح والحركة.

وكما يطلب الإسلام من الإنسان الحركة العقائدية على الكون كله- فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله، فالأرض جزء من الكون، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون، والله سبحانه خالق القوانين والأوضاع والإنسان (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) ومن ثم فإن اللقاء بين الحركتين : "حركة العقل، وحركة الوجدان، حركة الحس، وحركة الروح، حركة الذهن، وحركة القلب، هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحيد والانسجام سيكون محتماً في المدى القريب والبعيد، لأن كلتا الحركتين ستطلع الإنسان على الملكوت وتقوده إلى الله " [1].

وفي موضع آخر يقول : " إن هناك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية، تلك هي أن الله سبحانه ما دام قد عبر عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة، والإنسان والطبيعة، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء. إن هذا الموقف مهما كانت درجته غير مبرر في بداهات الإيمان ولا في مقتضيات (الاستخلاف)، ليس هذا فحسب، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات، ومن ثم فهو مرفوض من القرآن الكريم ابتداء " [2].

ومع هذا الذي يبدو من اقتراب الكاتب من طبيعة العلاقة الاستثارية الودود بين الإنسان والطبيعة- لكن الكاتب لا يلبث أن يعود، فيركز على قضية (الصراع) مع الطبيعة، فيقول:

---

(١) د/ عماد الدين خليل - التفسير الإسلامي للتاريخ ص٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) المرجع السابق.

(إن الصراع نفسه يتخذ أشكالا عديدة لا تقتصر على تقابل الضدين وتغلب أحدهما على الآخر في عالم الفكر أو المادة. . إنه يبدو أحيانا إرادة ذاتية تسعى إلى التوحيد والائتلاف الذاتي في وجدانية الإنسان، ومع المحيط الخارجي، ويبدو أحياناً أخرى رغبة فعالة في تحقيق تفاهم متبادل وتعارف وثيق وسلم عام بين الإنسان والإنسان أو بينه وبين الوجود) [1].

فلماذا تكون العلاقة (صراعا) إذن ؟

ولماذا لا نسميها علاقة (استثارة) لبذل أقصى الطاقة المذخورة ؟!

أجل .. ليس في حركة الحضارة (صراع) من نوع ما، ولا بين المرأة والرجل، ولا بين السالب والموجب، ولا بين أي ذكر وأي أنثى في الحيوان ولا في النبات ولا في الجماد، وإنما هناك تلك (الاستثارة) التي يبذلها كل من الطرفين المتقابلين، ليستخرج كل منهما أقصى الطاقة المذخورة، حتى يتحقق التكامل المنشود في أفضل صوره الممكنة.

إنه حوار فطري ثنائي تقتضيه طبيعة الحياة التي فطرها الله عليها، إنه حب خفي، ونماء، وتكامل، تحققه الحياة بأسلوبها المتنوع. .

وإلا فمن دون التقابل المتناغم كيف تعرف خصائص الأشياء ؟ بل كيف تعرف حقائق الأشياء ؟ فمن دون الأسود كيف نعرف الأبيض ؟ ومن دون النهار كيف نعرف الليل ؟ ومن دون الكره كيف نعرف الحب ؟. .

وكيف نعرف (فوق) إذا لم نعرف (تحت) ؟ أو (الشمال) إذا لم نعرف (الجنوب) ؟

---

(1) المرجع السابق.

إن القضية تتصل بناموس كوني كبير صاغه الله، وهو ليس (ديالكتيكا) جدلياً، يخضع لصراع تناقضي.

بل هو اختلاف وتنوع لا تتحقق (سيمفونية) الحياة التي تقتضي طبيعتها اختلاف الإيقاعات، إلا به.

فلكي تنشأ الحياة وتنمو وتزدهر لا بد من هذه (الزوجية) الازدواجية المتقابلة المتكاملة.

" حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " (١).

إنها سفينة واحدة، لا تتحمل حدة الصراع، وإنما الذي تحتمله هي هذه (الزوجية) المتحاورة المتنوعة المتكاملة.

القرآن المسطور يقود إلى فقه الكون المنظور :

ثمة آيات قرآنية كثيرة تتصل بالكون، وتتحدث عن عوالمه المختلفة، المشاهد وغير المشاهد، والمعلوم وغير المعلوم : **" فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ "** (٢).

" فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ " (٣).. وكثير من الآيات تتكلم عن صور من الإبداع الإلهي في عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الطبيعة والإنسان **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ }** (٤).. وكثير من الآيات تتحدث عن مفردات دقيقة في عوامل الكون،

---

(١) سورة هود : الآية ٤٠.

(٢) سورة الحاقة : الآية : ٣٨، ٣٩.

(٣) سورة الواقعة : الآية : ٧٥، ٧٦.

(٤) سورة فصلت الآية ٥٣.

وهكذا بصفة إجمالية نجد القرآن الكريم حافلاً بالآيات العظيمة التي تشد انتباهنا وتلفت نظرنا إلى ذلك الكون البديع الذي نعيش فيه ؛ لنرى كيف يسير بدقة وعظمة تتبئان عن أن لهذا الكون خالقا، خلق وقدر ودبر، ومن هذه الآيات الآية التي تقول : {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } [1] !! والسماء هي أسطع لوحة تدل على وجوب وجود الخالق وعظمته سبحانه بما تمتلئ به من الأجرام السماوية الضخمة التي يبلغ حجم بعضها أكبر من أرضنا ألف مرة.. والتي يسير بعضها بسرعة أكبر من انطلاق القذيفة. . تسير كلها بلا مزاحمة ولا تصادم. وتسير بلا ضوضاء ولا أعطال. . تحوي آلافا من القناديل المضاءة التي تساعد الناس في سيرهم. وهي تضاء بلا زيت ولا كهرباء وتجمل السماء وتجعلها زينة للناظرين [2].

وما زالت السماء مع التقدم العلمي الهائل- وستبقى- مجالاً خصباً للبحث والاستكشاف؛ حيث يمكن القول أن ما عرف عنها لا يساوي إلا نسبة مليونية مما يمكن أن يُعرف. . ومع ذلك فكثير من تجليات الإبداع واضحة لكل من ينظر بعقل وبصيرة معاً إلى السماء وما فيها.

فإن من ينظر في السماء يلمح بجلاء- لو أعمل عقله وخلصت نيته- أن السماء وما فيها مسخر ومدبر وموظف، فمن يا ترى فعل ذلك بهذه القدرة الفائقة المعجزة. .- إنه الله الذي لا إله إلا هو. . إنها تمضي منذ خلقت وفق ناموس لا يختل قط. .!!

وعندما ننظر في الفضاء ونجده معرضا للعجائب والخوارق كذلك، ففيه السحاب المعلق بين السماء والأرض، يسقى ساكنيها بالماء، الذي هو أساس الحياة عليها، ويلطف من حرارتها.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي : الآية الكبرى ص٤٢،٣٠، نشر سوزلر - القاهرة.

فمن الذي سخره وجمعه وأمره أن ينزل الماء ؟! إنه الله [1]. سبحانه وتعالى.

ثم هذا هو الهواء الذي يملأ الفضاء. . فكل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد الذي لا يملك شعورا، تسمع وتعي ما يلقي إليها من الأوامر الإلهية. . فيستنشقها جميع الأحياء. . وتنقل الأصوات وتنقل الحرارة والضوء والكهرباء.. وتصير وسطا صالحا لتلقيح النباتات. . وغير ذلك من الوظائف، فكيف انتظمت وأدت ذرات الهواء دورها على هذا النحو ؟!!

ثم لننظر إلى المطر الذي يغدقه الله- تعالى- علينا من خزائن رحمته على صورة تلك القطرات المتهاطلة، ولذلك أطلق على المطر اسم الغيث والرحمة [2]. كيف استقام أمر المطر على هذا النحو ؟ وكيف أن أمماً تعيش على المطر في زراعاتها وحيواناتها ؟

فهل كان ذلك كله احتمالاً أو صدفة ؟ وكيف بقيت هذه الصدفة ثابتة آلاف السنين ؟!

أو أنها قدرة الله القوي اللطيف الكريم المحيط بكل شيء علماً، والذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وينزل الغيث، وينشر رحمته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا. . وصدق الله العظيم القائل في كتابه المبين : **{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ }** [3]!!

---

(1) المرجع السابق: ص٣٤.

(2) المرجع السابق : ص٣٥،٣٦.

(3) سورة الواقعة : الآية ٦٨-٧٠

وعندما ننظر أيضا فوق الأرض، فنبصر عالم الحيوانات، وفوق الأرض وبين السماء والأرض فنبصر أسراب الطيور التي لا يمسكهن إلا الله وحده، والتي تمضي عابرة المحيطات بذاكرة كمبيوترية لا تخطئ طرقها ولا مساكنها.. عندما يتعمق تفكير الإنسان، بعقله الواعي- في عالم الطيور والحيوانات على هذا النحو- يجد تلك الحيوانات والطيور تتكلم بمئات الألوف من الأصوات المتباينة، والألسنة المختلفة، وسوف يجد ذلك الإنسان ثلاث حقائق عظيمة محيطة تشهد على وحدانية الله- جل جلاله- وهي : حقيقة الإيجاد والصنع والإبداع (أي حقيقة الإحياء ومنح الروح)، وحقيقة التميز مع الجمال، التي تتضح من خلال تلك المخلوقات غير المحدودة، والتي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة وبأشكال مزينة وبمقادير موزونة وبصور منسقة، ثم حقيقة خروج كل هذه الأنواع غير المحدودة من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ومن قطرات بسيطة متشابه أو مختلفة بفارق طفيف [١].

فهل تم كل ذلك بالصدفة أو الاحتمال ؟ وأي صدفة أو احتمال يصل إلى هذه العبقرية العجيبة: عبقرية عجيبة في الإيجاد.

وعبقرية في حفظ التميز الدقيق بين الأنواع حتى في الصنف الواحد.

وعبقرية في إخراج كل هذا الإعجاز من بذور ضعيفة، وبويضات ضئيلة.. ومع ذلك فمع ضعفها وضآلتها ؛ تحمل فهرستا كاملاً بخصائص النوع ووظائفه لا تحيد عنه!!

وإذا تركنا السماء والفضاء والماء والهواء والمطر. . ثم أدرنا النظر إلى الركن الأسفل الذي نبصره، أي إلى الأرض التي نسير فوقها بأقدامنا وننام بأجسادنا، ويخيل إلينا أنها منبسطة ساكنة خامدة، بينما هي تمر مر السحاب، وتدور عدة دورات كما تدور عقارب الساعة.

---

(١) النورسي : الآية الكبرى ص٥٢ ـ٥٥.

ومع ذلك نجد فوقها جبالا كالأوتاد.. هائلة ضخمة رهيبة..

والعجيب أننا عندما نتأمل بفكرنا وعقلنا في عالم الجبال والصحاري، نجد أن وظائف الجبال الكلية وفوائدها العامة من العظمة والحكمة بما يحير العقول ؛ فمثلاً نجد بروز الجبال واندفاعها من باطن الأرض بأمر رباني يهدئ من هيجان الأرض، ويخفف من حدتها الناجمة عن تقلباتها الباطنية، فتتخلص بذلك من الزلازل المهلكة والتصديعات المدمرة فالجبال أوتاد للأرض تحفظ توازنها.. قال تعالى " وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً "[1].

وقال " وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ "[2]، يضاف إلى ذلك ما في جوف هذه الجبال من أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التي ادخرت بحكمة وكرم وتدبير [3].

ومع كل ذلك، فهذه الكائنات.. تتكامل في أداء أدوارها، وتمضي لوظائفها بحب وشوقا وفاقا لقانون الجاذبية بين السالب والموجب، والذكورة والأنوثة في كل شيء، وحتى علاقة الإنسان نفسه بالكون، مع أنها علاقة تسخير بين (فاعل) هو الإنسان و (موضوع) هو الكون إلا أن التسخير هنا- في الرؤية الإسلامية- ليس تسخير إذلال وصراع، بل هو تسخير ودود كريم استئناسي، فالرسول يحب جبل أحد، كما أن جزع الشجرة كان يحن لرسول الله عليه السلام..!!

وهنا نؤكد ونزكي ما يؤكده لنا المفكر الإسلامي والمصلح الكبير بديع الزمان سعيد النورسي التركي (ت ١٩٦٠م) من أن للجمادات حسا وعاطفة، مثلها مثل الحيوانات والطيور غير العاقلة.. ولها كلها- جمادات أو حيوانات-

---

(١) سورة النبا : الآية ١٧.

(٢) سورة الحجر : الآية ١٩.

(٣) النورسي : الآية الكبرى - المكان السابق.

أشـواق ولذائـذ، وهـو يـؤيد مقولـته بـأن مـن يبصـر بعـض الجمـادات يجـدها تطلـب شـرفا ومقامـا وكمـالا وجمـالا وانـتظاما، بـل هـي تـبحث عـن كـل ذلـك، وتفـتش عـنه لأجـل إظهـار الأسـماء الإلهـية المتجلـية فـيها، لا لـذاتها، فهـي تتـنور وتترقـى وتعلـو أثناء امتثالها تلك الوظيفة.

لنتذكـر أيضـا عـالم الحـيوانات والطـيور غيـر العاقلـة- هـنا- إن الـديك مـثلا- مـع أنـه غيـر عاقـل يؤثـر الـدجاجات علـى نفسـه، فيتـرك مـا يلـتقطه مـن حـبوب رزقـه إلـيهن، دون أن يأكـل مـنها. ويشـاهد أنـه يقـوم بهـذه المهمـة وهـو فـي غايـة الشـوق، وذروة اللـذة، فهـناك إذن لـذة فـي تلـك الخدمـة أعظـم مـن لـذة الأكـل نفسـه. . وكـذا الحـال مـع الدجاجـة- الـراعية لأفـراخها- فهـي تؤثـرها علـى نفسـها، إذ تـدع نفسـها جائعـة فـي سـبيل إشـباع الصـغار، بـل تضـحي بنفسـها فـي سـبيل الأفـراخ، فـتهاجم الكلب المغير عليها لأجل الحفاظ على الصغار [1].

وعلـى هـذا يقـاس جمـيع مـا فـي الكـون مـن سـعي وحـركة، ابـتداء مـن دوران الشـموس فـي أفلاكهـا، وانـتهاء بـدوران الـذرات فـي دائـرة جاذبيـتها، حتـى إن كـل ذرة، وكـل ذي حـياة يـبدو كالجـندي فـي الجـيش لـه علاقـات يـنجذب إلـيها، ولـه وظائف وارتباطات مع كل دائرة من الدوائر في جيش الحياة كله !!

وأيـا كـان الأمـر فـإن مفـردات الكـون ؛ أو مـا نسـميه عـالم الأشـياء ينقسـم إلـى ثلاثة أقسام [2].

قسم منها : كالماء، يُرى ويُحس ولكن لا يمسك بالأصابع. . ففي هذا القسم المادي ينبغي التجرد عن الخيالات والانغماس فيه بكلتيك. . بالطرق العلمية البحتة. . وسوف تكشف أسرار عجيبة في الماء وأشباهه تؤكد لك وجود الخالق العظيم.

---

(١) النورسي : حقائق الإيمان : ص١٢١، ١٢٢.

(٢) النورسي : الآية الكبرى، المكان السابق.

والقسم الثاني : كالهواء، يُحس ولكن لا يُرى ولا يُتخذ ولا يُمسك. . فهو نصف مادي ونصف معنوي، وهو بحاجة إلى العلم والبصيرة. وبهما تدرك عظمة اللطيف الرحيم الذي يقيم حياة الناس والكون على كائن لطيف على هذا النحو.

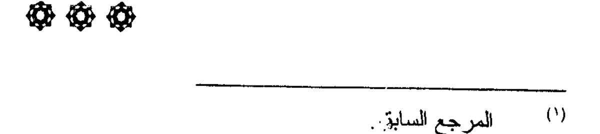
والقسم الثالث : كالنور، يُرى ولكن لا يُحس، ولا يؤخذ ولا يستمسك، فيحتاج لعمل الكيان الإنساني كله. . من بصيرة القلب إلى الروح. . لأن النور لا يؤخذ باليد، ولا يُصاد بالأصابع، وهو يعالج بالفكر والبصيرة [1].. وبالفكر (الموضعي النقي) والبصيرة (النقية القوية) نستطيع أن ندرك بعض آفاق عظمة الله في الكون، ولكننا سندرك أول ما ندرك أن هذا الكون لا يقوم بغير خالقه الحكيم المدبر الخبير المهيمن الرحيم.

وسوف يدلنا كل شيء في الوجود على وجوب وجود الله القدير، وعلى عظمته المطلقة من جهتين :

الجهة الأولى :قيام كل كائن من الذرات حتى المجرات، ومن النملة حتى الفيل بوظائف تفوق طاقته المحدودة بآلاف المرات، مع أنه عاجز عن ذلك، فيشهد كل كائن بلسان عجزه على وجود الله القدير المطلق.

الجهة الثانية : توافق حركة كل كائن مع الدساتير التي تكون نظام العالم، وانسجام عمله مع القوانين التي تديم توازن الموجودات، فيشهد- بهذا الانسجام والتوافق- على وجود الله العليم القدير.

ولكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا. . فسبحان الله رب العرش عما يصفون !!



❁ ❁ ❁

---

(1) المرجع السابق..

وهكذا كانت رؤية بديع الزمان سعيد النورسي لعلاقة الإنسان بالكون ... رؤية إسلامية علمية رائعة قائمة على التحليل الموضعي، منطلقة من صدق الوحي الذي لا يأتيه الباطل، ومنُ الثقة في العقل عندما يكون عقلاً محاطاً بضمانات الوحي (شارات مرور الوحي الكلية الكونية). . باحثا عن الحق، متخلصاً من الأهواء والضغوط المادية والفكرية الجزئية والمنحرفة.

بديـــع الـــزمـــان سعيد النـــورسي
والقضايا الشائكة في تاريخ المسلمين



في بحث سابق وجيز كتبناه تحت عنوان : " بعض مقومات رؤية بديع الزمان النورسي لحركة التاريخ " عرضنا لبعض خصائص الرؤية النورسية لوقائع التاريخ وتفسيره.

بيد أننا – عندما شاء الله أن نغوص في فكر النورسي بطريقة أكثر وأعمق – اكتشفنا أن هناك أبعاداً كثيرة تتصل بجهود بديع الزمان في تأصيل النظرة المنهجية الموضوعية لكثير من وقائع التاريخ الإسلامي التي اختلطت الآراء في تفسيرها.

ومن هنا وجدنا لزاما علينا أن نتتبع هذه القضايا الشائكة التي قدم النورسي فيها تفسيراً جديدا وتقويماً عادلاً، ورؤية كفيلة بحل كثير من الألغاز، وتحقيق كثير من المنافع للأمة الإسلامية في ظروفها المعاصرة دون أن يكون النورسي – كما سيتجلى لنا في ثنايا البحث – متحيزاً لطرف من الأطراف أو لرأي مسبق من الآراء.

ومن هذه القضايا : مهمة آل البيت في التاريخ ومكانتهم الحقيقية، أو بتعبير آخر: حقوقهم وواجباتهم، دون إفراط أو تفريط، انطلاقاً من نصوص الكتاب والسنة، ومن دورهم الواقعي في التاريخ الإسلامي.

ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن الأستاذ النورسي من أفضل من قدموا حلولاً عادلة متوازنة لهذا الصراع القديم الجديد المعروف بالنزاع بين أهل السنة والشيعة حول الأئمة الأربعة ومكانتهم.

وقد قدم الشيخ لمحة طيبة، عندما فرق بين شيعة الولاية، ومعظمهم من أهل السنة، وشيعة الخلافة، وهم أهل التشيع المذهبي الذين – يختلفون مع جمهور الأمة في رؤيتهم، ويختلفون حتى مع الإمام (علي) نفسه - رضى الله عنه-

ومن القضايا التي عالجها الشيخ أيضاً ووقفنا عندها : مكانة الصحابة عموما في التصور الإسلامي الصحيح ؛ فقد ذكر الشيخ أنهم أفضل بني الإنسان بعد الأنبياء عليهم السلام، وهو بهذا يرد ضمنا على الذين يحاولون الانتقاص من قيمة هؤلاء الصحابة.

ونحن نرى أنه يدخل في قضايا تفسير التاريخ - وسنثبت ذلك في ثنايا البحث إن شاء الله- معالجة الشيخ النورسي لأسباب هزيمة أهل الهداية في كثير من الأحيان أمام أهل الضلالة.

وكيف أن قسماً من أهل المدينة أصروا على الضلالة على الرغم من أنهم كانوا يجاورون الرسول الأعظم ﷺ

وأيضاً : - لماذا لم تعتمد دعوة الرسول ﷺ في كثير من الأحيان على المعجزات الحسية، وما صلة هذا بالفقه الإسلامي لحركة التاريخ.

وكيف أنه من الضروري- في فقه حركة التاريخ من منظور إسلامي – أن نؤمن بالغيب (والغيب ليس الأسطورة، بل هو ضدها) ومن الغيب الإيمان بالملائكة والجنة والشياطين والوعي بأدوار هؤلاء في صناعة الإنسان المسلم لحضارته الملائكية المحاربة لشياطين الإنس والجن حربا ذات ثبات وديمومة.

ويدخل في هذا أيضا علاقة عالم الإنسان الصغير بعالم الكون الكبير، ودلالة هذا على وجود قوى سماوية تتدخل في عالم الإنسان، بل إن الكون كله بما فيه من عناصر وموجودات يتفاعل مع الإنسان المسلم كما تفاعلت الأمطار والرياح والجبال مع كثير من الأنبياء والصالحين، لأن الكفر والشرك والضلالة إيقاعات نشاز في عالم الكون كله، وهي تنشئ احتجاجات كونية شاملة.

ويعزو الأستاذ النورسي انتصار الباطل أحيانا إلى قاعدة سهولة الهدم، والى الأساليب الخسيسة التي يترفع المسلمون عن استعمالها، وإلى عدم أخذ المؤمنين بأسباب التمكين مع أنها أسباب ربانية مشروعة.

وفي هذا السياق يقدم الأستاذ النورسي تحليلا يستحق أن نقف عنده طويلا، حول حقيقة الحضارة الأوربية وكيف أن أوربا اثنتان، لا أوربا واحدة، فهناك أوربا النافعة للبشرية التي كانت ذات صلة بالنصرانية الحقة، وهناك أوربا الثانية، التي خاصمت كل الأديان والغيبيات، وعبدت العقل والأسطورة معا، وتعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية والمادية، وفي مقابل هذه الحضارة المتعفنة يقدم الأستاذ النورسي الطريق الحضاري القرآني الذي ينسجم أصحابه مع الملائكة ويتعاونون في تنظيم حركة الكون بانتظام تام وتطابق رائع مع الأوامر التكوينية والتواصل الدائم بين السماء والأرض، وبين الماديات والمعنويات، والفاني والباقي.

ولكن : لماذا يختلف أصحاب الدين والعلماء وهم أهل حق ووفاق في حين يتفق أهل الدنيا والضلالة والنفاق ؟

إن هذه معضلة من معضلات تاريخنا، يقدم النورسي سبعة أجوبة عليها، ويقدم من خلال هذه الأجوبة معالم لتجاوز هذه الحالة المرضية، ويدعو إلى ترك التنازع والاعتصام بحبل الله، وعدم التنافس في أموز الدنيا، ويقول : إذا كان المتصوفة عندهم ما يسمى بالفناء في الشيخ، فنحن ندعو إلى (الفناء في الإخوان)، أي أن نستعيد ذكريات استقبال الأنصار للمهاجرين الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

ومن القضايا أيضا إجابة الشيخ عن قضية (موقع سد ذي القرنين) ورأيه في (شخصية ذي القرنين) ومن هو ؟

ولماذا اختلط على الناس بالإسكندر الأكبر، ومن هم يأجوج ومأجوج ؟

❁ ❁ ❁

إلى غير هذا من القضايا التي تعين على تكوين معالم رؤية بديع الزمان النورسي للتاريخ الإسلامي وتفسير حركة التاريخ بصفة عامة.

قضيتا الغدير والخلافة
ومحاولة حقيقية للتقارب
بين السنة والشيعة

في تاريخنا وفكرنا الإسلامي (محاط) يجب أن نعالجها بطريقة موضوعية وواقعية، ولا نفصلها عن سياقها الفكري والتاريخي، ومن ثم نسلط عليها شحنة عاطفية وفكرية تجعلها ثابتة تهدم وتفرق، وتبعث من أعماق التاريخ حزازات وأحقاداً ما أغنانا – في الواقع الأسيف الذي نكابده – عن اجترارها وبعثها بعثاً صدامياً عدوانيا يهدم الماضي والحاضر معاً...!!

وموضوع (غدير خم) – أو – الغدير – واحد من عشرات الموضوعات التي يجب أن توضع في أطر كلية، وتمنهج بطريقة جديدة، حتى لا تبقى صورة العداء الفكري موصولة منذ استشهاد الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) وحتى اليوم، تقسم الأمة – إلى جناحين متصارعين.. ليس في ماضيها فقط – بل في حاضرها ومستقبلها ...!!

وباسم " الغدير" تقام دور نشر وتصدر كتب ودوريات، وتقام أحفال سنوية، وتتواصل البحوث متخذة الخط الحاد العنيف نفسه، دون أن يفكر الكاتبون والمحتفلون في العواقب التي يمكن أن تتحقق من وراء جهودهم. . ودون أن يبصروا ما تعانيه الأمة من وراء هذه الضغوط والتكثيفات الفكرية التي تشعل الحروب الفكرية، وتمزق الصفوف، وتقود ضعاف الرؤية للاتجاه يمينا أو يسارا، مما يكون من شأنه – في نهاية الأمر – تعكير الأجواء، وبقاء البراكين– قابلة للانفجار !!

ونحن – في هذا المقام – نقف عند هذا الأمر – أو هذه المعضلة التاريخية – وقفة علمية نقدم من خلالها رؤية فريق كبير معتدل من الممثلين – باعتدال شديد – لرؤية أهل السنة والجماعة، سعيا إلى إنهاء هذه المشكلة، وعبور هذا القاطع وأمثاله من القواطع التي تحجز الأمة عن التوحد، والتضامن ولا سيما والأمر يتعلق بالماضي – أولا –

وتتعدد فيه الرؤى – ثانيا – ولأن الجمع بين هذه الرؤى – ثالثا- ليس صعبا . وذلك بالطبع . عندما تتسع الآفاق، وتتفسح الصدور والعقول، وتصفو النيات، وتتحد الغايات!!

إنني – ابتداء – لا أشكك في صحة الواقعة. .واقعة غدير خم !!

وإنني ثانيا – لم أفهم منها – قط – أنها تعني فرض استخلاف سياسي ودنيوي محدد، يلزم سلفنا الصالح من صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين كانوا يطبقون الإسلام في الفروع والجزئيات { في نطاق القدرة والطبيعة البشرية }. يلزمهم باستخلاف الإمام (علي بن أبي طالب) ؓ بمعنى أن يكون خليفة منصوصا عليه للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، فهؤلاء الصحابة، سواء من الأنصار الذين لا مصلحة لهم في ولاية أبي بكر أو علي أو غيرهم من المهاجرين الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة. . هؤلاء وأولئك من صحابة رسول الله الذين أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى عليهم الرسول في أحاديثه الشريفة : ينبغي علينا أن نجلهم عن أن يتواطئوا- بهذا الاجتماع الغريب – دون مصلحة لأكثرهم – ضد أمر ألزم به الرسول في قضية خطيرة- كما يذهب إلى ذلك الفهم الشيعي لغدير خم !!

وما كان يتصور – عقلا ولا دينا – مع وجود الأمر بهذا الوضوح وبهذه القوة (كما يرى إخواننا الشيعة) أن يذهب الأنصار إلى السقيفة ليطلبوا الأمر لأنفسهم، فلما غلبهم إخوانهم المهاجرون بأن الأمة لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، طلبوا أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ... فحتى إذا ما استثنينا جبهة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما – فإن المنهج الفكري السياسي السائد وأساليب الحوار التي كانت مطروحة في السقيفة – تؤكد لنا أنه لم يكن هناك فقه نصي وديني – في الذهنية المسلمة- بأمر المسلمين أمرا نصيا وشرعيا – باختيار الإمام علي بن أبي طالب ؓ وإلا لما كانت هذه الحوارات وهذه الآراء !!

ومن الناحية العملية، فإنه ليس للأنصار مصلحة في ولاية أبي بكر أو علي أو غيرهما من المهاجرين. . فكلهم سواء عندهم. . فضلاً عن أن كثيراً من المهاجرين أنفسهم- كذلك- لا مصلحة مباشرة لهم في ولاية أبي بكر أو علي- (رضي الله عن الجميع) فلهذا مكانته الرفيعة، ولذلك مكانته الرفيعة أيضاً.

وإنما فهم الصحابة (رضوان الله عليهم جميعا) أن موالاة الإمام علي ﷺ إنما هي موالاة روحية ومرجعية فكرية، ومكانة اجتماعية، وعاطفة وجدانية تحفظ لآل بيته (من الصالحين الملتزمين بالإسلام لا المتاجرين به)- مكانة دينية وروحية متميزة، وهي مكانة لم تفرضها وصية الرسول في (غدير خم) فحسب، بل فرضتها الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي توصي بآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب [الذي رباه الرسول في بيته، والذي تنفس في أجواء النبوة صبياً وشاباً، والذي تزوج من ابنة الرسول التي عاشت بعده، وأخيرا الذي أكرمه الله بالحبيبين العظيمين : الحسن والحسين رضي الله عن الجميع...].

وهذا ما فهمه المسلمون ونفهمه نحن أيضاً من قوله عليه السلام في حديثه الصحيح الذي نسلم به ويسلم به كل مسلم : "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. ." !!

لكننا مع إيماننا بهذا- يجب أن نضع هذا الحديث في سياقه الصحيح، فلعل هذا السياق يكشف لنا البواعث التي من أجلها قال الرسول عليه السلام هذا الحديث، وبالتالي نضع هذا الحديث في حجمه وإطاره، ولا نمتد به لدرجة أن نلغي قاعدة الشورى في الإسلام. . تلك القاعدة التي تمثل- مع العدل- العمودين الأساسيين للنظام السياسي الإسلامي !!

يقول الإمام ابن كثير في كتابه (حجة الوداع) عن حديث (غدير خم) :

لقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير والتاريخ، فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه، وساق الغث والسمين، والصحيح والسقيم على ما جرت به عادة كثير من المحدثين، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة، ونحن نورد عيون ما روى في ذلك أعلامنا أنه لا حظ للشيعة فيه، ولا متمسك لهم ولا دليل، لما سنبينه وننبه عليه، فنقول والله المستعان :

قال محمد بن إسحاق- في سياق حجة الوداع : حدثني يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي عمرة، عن يزيد بن طلحة بن يزيد بن ركانة، قال : لما أقبل علي من اليمن ليلتقي برسول الله ﷺ بمكة، تعجل إلى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلا من الصحابة، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة من البز الذي كان مع علي.

فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال : ويلك ما هذا ؟ قال : كسوت القوم ليتجملوا إذا قدموا في الناس، قال : ويلك !! انزع قبل أن تنتهي به إلى الرسول ﷺ قال: فانتزع الحلل من الناس فردها في البز، قال : وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم.

قال ابن إسحاق، فحدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم، عن سليمان بن محمد بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب- وكانت عند أبي سعيد الخدري- عن أبي سعيد، قال : (اشتكى الناس علياً، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعته يقول : (أيها الناس لا تشكوا عليا، فو الله إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله [من أن يشتكى].

ورواه الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق به وقال : إنه لأخشن في ذات الله أو في سبيل الله [1].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي والحسن بن سفيان :حدثنا هدبة عن البراء، قال (كنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فلما أتينا على (غدير خم) كبح [كنس] لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، ونودي في الناس : الصلاة جامعة، ودعا رسول الله ﷺ علياً وأخذه بيده فأقامه عن يمينه، فقال : " ألست أولى بكل امرئ من نفسه ؟ قالوا : بلى. قال : فإن هذا مولى من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه ".

فلقيه عمر بن الخطاب : فقال : هنيئا لك : أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة !

ورواه بن جرير، عن أبي زرعة، عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة عن علي بن يزيد، وأبي هارون العبدي- وكلاهما ضعيف- عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب- به.

وروي عن ابن جرير هذا الحديث عن موسى بن عثمان الحضرمي- وهو ضعيف جداً- عن أبي إسحاق السبيعي، عن البراء وزيد بن أقرم- والله أعلم) [2].

وهكذا نرى أن هذا الحديث (الصحيح) رد لاعتبار علي ﷺ في وجه من حاولوا شكايته أو النيل منه، وهو تأكيد لحق أصيل لكل أهل البيت الكرام وعلى رأسهم الإمام علي. وبهذا المعنى استقبل عمر بن الخطاب الحديث وهنأ علياً، دون أن يعلق- لا في ذهن عمر ولا علي- أي صلة لهذا الحديث بالشأن

---

[1] حجة الوداع للإمام ابن كثير . تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد - دار القرآن الكريم - بيروت، ص١٨٦.

[2] المرجع السابق، ص١٨٦.

السياسي. ولا بنظام الحكم في الإسلام. ولا بإلغاء الشورى بعد رسول الله ﷺ- وكل المؤمنين فقهوا هذا الحديث على هذا النحو الديني والروحي. .!!

إننا- نحن أهل السنة جميعا- نؤمن بأن لأهل البيت ولاية وحقوقا، ونعدهم إذا كانوا ممثلين صادقين للإسلام- أئمتنا الروحيين، لأنهم إذا توافر فيهم ما في أهل العلم والفضل- يزيدون عليهم بنسبهم لرسول الله ﷺ ، وتنفسهم في مناخ النبوة الزكي ، كما يزيدون بوصاية القرآن والسنة بهم.

وهذا الولاء لهم، إنما هو ولاء يقصد به الحب والإجلال، وأخذ الدين عنهم، و الاستعداد التام للذود عنهم وإكرامهم. وهذا الولاء يؤمن به كل مسلم صادق، وهو جزء من الوجدان الإسلامي العام أما القول بأن حديث (غدير خم)- أو غيره من الأحاديث الصحيحة أو الضعيفة التي تمجد عليا أو تمجد آل البيت أو بعض الصحابة- من شأنها فرض الخلافة (بالنص) لعلي وأسرته و(إلغاء الشورى)- فهو قول مرفوض، فكل هذه الأحاديث خارجة عن النطاق السياسي تماما. فالرسول ﷺ لم يوص لأحد بعده- لا لأبي بكر ولا لعلي (رضي الله عنهما). وكل الأحاديث التي اعتمد عليها الشيعة في مذهبهم- (ماعدا قلة من الأحاديث ومن بينها حديث غدير خم) هي أحاديث- كما يقول ابن حزم الأندلسي- موضوعة مكذوبة، ولكن ابن حزم نفسه يوافق على صحة حديث (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) ويرى أنه لا يوجب لعلي فضلاً على من سواه، ولا استحقاق لإمامته بعد الرسول لسببين :

الأول : لأن هارون لم يل أمر بني إسرائيل بعد موسى، كما أنه قد ولي الأمر بعد رسول غيره، ولا مبررا لولاية الأمر بعد رسول الله أبو بكر الصديق، والسبب الثاني : أن الرسول ﷺ قد قال لعلي هذا القول حينما استخلفه على المدينة في غزوة تبوك، كما استخلف رجالا كثيرين غيره قبل تبوك وبعدها

علـى المدينـة فـي أسـفاره، ولـذا فـإن هـذا الاسـتخلاف لا يـوجب لعلـيّ فضـلا علـى غيره، ولا مبرراً لولاية الأمر بعد رسول الله.

وتقـول الدكتورة (نجـاح محسـن) نقـلا عـن ابـن حـزم وتحلـيلاً لآرائـه :" مـن المحـال أن يـتفق جمـيع المسـلمين علـى طـي عهـد عهـده رسـول الله ﷺ إلـيهم، فـلا تـوجد أيـة روايـة عـن أحـد بهـذا الـنص المـزعوم إلا روايـة واحـدة ضـعيفة، ولا يـوجد سبب يجعل الناس يكتمون النص منذ مات الرسول إلى قتل عثمان.

وإذا كـان الرسـول قـد نـص علـى علـيّ وكانـت الخلافـة مـن حقـه فمـا الـذي مـنعه من الكلام والمطالبة بحقه وإظهار النص الذي يدعيه الشيعة.

وإذا قالـت الشـيعة : إن الصـحابة قـد نسـوا ذلـك العهـد، فـإن هـذا محـال، لأنـه فـي هـذه الحالـة يمكـن أن يدعـي أي إنسـان أنـه منصـوص علـيه وأن الـناس كلهـم نسوه.

وإذا كـان جمـيع أصـحاب رسـول الله ﷺ قـد اتفقـوا علـى جحـد ذلـك الـنص وكـتمانه، واتفقـت طـبائعهم علـى نسـيانه، فكـيف وصـل هـذا الـنص إلـى الـروافض؟ ومن بلغه إليهم "[1] !!

وهـذه الآراء- سـواء لابـن كثيـر أو ابـن حـزم أو الدكـتورة نجـاح محسـن- بعـض مـا يمـثل تـراثنا السـني فـي هـذه القضـية الخطيـرة، وهـناك نمـاذج كثيـرة لا يمكن استقصاؤها.

ونحـن نكتفـي هـنا بـتقديم نمـوذج آخـر - إلـى جانـب هـذه الـنماذج- نـراه أكثـر اعـتدالا، بـل تـوددا إلـى إخوانـنا الشـيعة، وحـبا عارمـا لآل البـيت، فضـلاً عـن أنـه

---

[1] د. نجاح محسن: الاتجاه السياسي عند ابن حزم الأندلسي، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ ص ٦٢، ٦٣ بتصرف - مصر.

أكثر بحثا عن حل يرضي جميع الأطراف لهذه (المشكلة التاريخية) التي لا يجوز أن تبقى قاطعا فاصلاً بين الشيعة والسنة إلى يوم القيامة.

ولا أكون مبالغا إذا قلت إن معالجة العالم التركي بديع الزمان سعيد النورسي يعد من أفضل ما قدم في العصر الحديث.

إنه لم ينطلق- ابتداءً- من موقف المدافع عن موقف أهل السنة والجماعة المنتقص لرأي الشيعة،بل انطلق من موقف محايد ودود يحاول أن يفض اشتباكاً، ولا يسعى لتقديم آراء من شأنها أن تزيد الأمر اشتعالاً أو تبقيه على وضعه القديم.

ولهذا نرى النورسي- يبرز- بأسلوب قوي- عاطفته الجياشة نحو أهل البيت، ويبرز إمامتهم الدينية والعلمية والروحية في حضارة المسلمين، ودورهم الدعوي الأساسي بالنسبة لنشر الإسلام، وإبراز حقائقه والذود عنه.

ويحلل النورسي رسالة أهل البيت- من خلال النصوص التي تحدثت عنهم في الكتاب والسنة- فيبين أن الاهتمام الشخصي (القولي والفعلي) من الرسول عليه السلام بآل البيت- يرجع إلى أنهم امتداد شجرة النور، وأنهم القادرون على حمل الأمانة بعد خاتم الأنبياء- أكثر من غيرهم ؛ لتنفسهم في بيت النبوة ومعاشرتهم لإمام الدعوة عليه السلام، وفقههم السديد بالإسلام عاطفة وعقلا.

يقول النورسي :

" إن إظهار الرسول ﷺ شفقة فائقة وأهمية بالغة للحسن والحسين رضي الله عنهما في صباهما، ليست هي شفقة فطرية ومحبة نابعة من الإحساس بصلة القربى وحدها، بل نابعة أيضا من أنهما بداية سلسلة نورانية تتولى مهمة من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلا منهما منشئ جماعة عظيمة من وارثي النبوة، وممثل عنها وقدوة لها.

نعـم!! إن حمـل الرسـول ﷺ الحسـن ﷺ فـي حضـنه وتقبـيله رأسـه بكمـال الشـفقة والـرحمة هـو لأجـل الكثيـرين مـن ورثـة النـبوة الشـبيهين بالمهـدي الحاملـين للشريعة الغراء"[1].

" إن الرسـول ﷺ قـد شـاهد بنظـر النـبوة الأنـيس بالغـيب : أن آل بيـته سـيكونون بمـثابة شـجرة نورانـية عظـيمة تمـتد أغصـانها وفـروعها فـي العـالم الإسلامي " [2].

" كـذلك رأى ﷺ أن أقطـاب آل بيـته يكونـون كأنبـياء بنـي إسـرائيل فـي الأمـة المحمديـة يـؤدون وظـيفة خدمـة الإسـلام العظـيمة فـي شـتى طـرقها ومسـالكها، ولأجل هذا أمر ﷺ أن يقول:

" قُـل لا أسْـألكُمْ عَلـيْهِ أجْـراً إلاَّ المَـوَدَّةَ فِـي القرْبَـى " وطلـب مـودة أمـته لآل بيـته. والـذي يـؤيد هـذه الحقـيقة هـو مـا جـاء فـي روايـات أخـرى أنـه ﷺ قـال : (يـا أيهـا الـناس إنـي قـد تـركت فـيكم مـا إن أخـذتم بـه لـن تضـلوا : كـتاب الله وعترتـي أهـل بيتـي) [3]. ذلــك لأن آل البـيت هـم منـبع السـنة الشـريفة والمحافظـون علـيها والمكلفون أولا بالالتزام بها "[4].

فمكانـــة أهـــل البـــيت- إذن- مســتمدة مـــن وظيفـــتهم العظمـــي، وهـــي تمثـيلهم للإسـلام فـي سـأركهم وفكـرهم، وبـذلهم الجهـد الدعـوى والتـربوي والأخلاقـي فـي مقاومـة المنحـرفين بالإسـلام عـن إطـاره الشـرعي، العاملـين علـى إسـقاط نـزعات سياسـية أو مصـلحيه أو فكـرية علـى حقائقـه الناصـعة التـي يجـب أن تبقـى صـافية

---

(1) اللمعات، ٣٠ ط م نشر شركة سوزلر - القاهرة سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(2) المرجع السابق، ص ٣١٠.

(3) المفرجة الإمام أحمد في مسنده.

(4) المرجع السابق ص ٣٢.

نقية يلجأ الناس إليها كلما استبد بهم المحرفون والظالمون والخارجون عن الهدي القرآني والنبوي الكريم.

هذه هي وظيفة آل البيت، وهذا هو دورهم الحقيقي في التاريخ، ومن هذه الوظيفة وهذا الدور يستمدون مكانتهم، وتتحدد رسالتهم، ومن ثم يحتلون مواقع الحب والتقدير والقيادة بالنسبة لجميع المسلمين .... لا فرق في ذلك بين من يسمى (سنة) ولا من يسمى (شيعة) !!

ويؤصل النورسي- بمنهجية عميقة ورؤية تاريخية منصفة بناءة- آراءه في حل ألغاز تلك (الفتنة الكبرى) وتوجيه وقائعها التوجيه الإسلامي السديد، فيقرر أن التحليل الموضوعي لمسيرة الأحداث وسلوكيات الصحابة- وهم من هم في دينهم وإخلاصهم- وسلوكيات أبي بكر وعلي وبقية الراشدين وهم قمة الصحابة- هذا التحليل الموضوعي البعيد عن العصبية والتشنج يأخذ بأيدينا لتحقيق الوئام بين السنة والشيعة.

فالقضية تتلخص في رأيين يبدوان متناقضين :

فإن أهل السنة والجماعة يقولون : إن عليا رضى الله عنه هو رابع الخلفاء الراشدين، وإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أفضل منه وأحق بالخلافة، فتسلم الخلافة أولا. .

والشيعة يقولون : " إن حق الخلافة كان لعلي ﷺ إلا أنه ظلم، وعلي ﷺ أفضل من الكل " [1].

لكننا- لو نظرنا لمسيرة الوقائع بالمنهجية العميقة الواعية- لرأينا الوقائع ترفض قول الشيعة جملة وتفصيلا.

---

[1] المرجع السابق ص ٣٢.

وحتى الإمام الأكرم علي بن أبي طالب يرفض رأي الشيعة بأعماله وسلوكياته وأقواله... يقول النورسي.

"إن إقرار سيدنا علي نفسه مرارا وتكرارا، واتباعه الخلفاء الثلاث، وتوليه وظيفة (شيخ القضاة) وكونه من أهل الحل والعقد طوال عشرين سنة وأكثر ... كل ذلك يجرح دعوى الشيعة [١].

ويقول النورسي أيضا:

"إن أهل الحق، أهل السنة والجماعة الذين يحبون سيدنا عليا ﷺ ويوقرونه، كيف لا يحبون من كان سيدنا علي ﷺ نفسه يحبهما ويجلهما ؟ [٢].

إن شيعة الخلافة لا حق لهم- غير الخجل أمام أهل السنة والجماعة- لأن هؤلاء ينقصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه في دعواهم الحب المفرط له، بل يقضي مذهبهم وصمه بسوء الخلق. حاشاه- حيث يقولون :" إن سيدنا عليا- ﷺ- قد ماشي سيدنا الصديق والفاروق- رضي الله عنهما- مع أنهما غير محقين، واتقى منهما تقاة، وباصطلاح الشيعة إنه عمل بالتقية.

بمعنى أنه كان يخافهما، وكان يرائيهما في أعماله (!!) إن وصف مثل هذا البطل الإسلامي العظيم الذي نال اسم :"أسد الله" وأصبح قائدا لدى الصديقين ووزيرا لهما : أقول إن وصفه بأنه كان يرائي ويخاف ويتصنع بالحب لمن لا يحبهم حقا، واتباعه لغير المحقين أكثر من عشرين عاما، ومسايرتهما تحت سطوة الخوف، ليس من المحبة في شيء. وسيدنا علي-ﷺ- يتبرأ من مثل هذه المحبة.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦.

وهكذا فإن مذهب أهل الحق لا ينقص من شأن سيدنا علي- ﷺ- بأية جهة كانت، ولا يتهمه في أخلاقه قطعا ولا يسند إلى مثل هذا البطل المقدام الخوف- بل إن أهل السنة يقولون:"لو لم يكن سيدنا علي- ﷺ- يرى الحق في الخلفاء الراشدين لما كان يعطيهم الولاء لدقيقة واحدة، وما كان ينقاد لحكمهم أصلا ".

بمعني أنه- ﷺ- قد عرف أنهم على حق وأقر بفضلهم فبذل شجاعته الفائقة في سبيل محبة الحق [١].

ويحل " النورسي" مشكلة (الأفضيلة) بين أبي بكر أو الخلفاء الثلاثة، وبين علي، بطريقة علمية أراه غير مسبوق إليها- بهذا الجلاء والإنصاف والفقه السديد لوظيفة آل البيت-يقول النورسي :

"إنه ينبغي النظر إلى سيدنا علي رضي الله عنه من زاويتين أو من جهتين:

الجهة الأولى: النظر إليه من زاوية فضائله الشخصية ومقامه الشخصي الرفيع.

الجهة الثانية : هي من زاوية تمثليه الشخصي المعنوي لآل البيت، والشخص المعنوي لآل البيت يعكس نوعا من ماهية الرسول الكريم ﷺ.

باعتبار الجهة الأولى :إن جميع أهل الحقيقة وفي مقدمتهم سيدنا علي يقدمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد رأوا مقامهما أكثر رفعة في خدمة الإسلام والقرب الإلهي [٢].

ومن حيث الجهة الثانية أي كون سيدنا علي رضي الله عنه ممثلا عن الشخص المعنوي لآل البيت، فالشخص المعنوي لآل البيت من حيث كونه ممثلا

---

(١) اللمعات : ٣٧.

(٢) المرجع السابق : ٣٤.

لحقيقة محمدية، لا يرقى إليه شيء بالموازنة، وكثرة الأحاديث النبوية الواردة في الثناء على سيدنا علي رضي الله عنه وبيان فضائله هي لأجل هذه الجهة الثانية [١].

وهذه النتيجة التي ينتهي إليها النورسي تكاد تكون- تماما – هي الحقيقة المسيطرة على أكثر أهل السنة، فلا أحد من أهل السنة، (إلا الشواذ الناصبة !!) إلا ولآل البيت في قلبه مكانة سامية وحب عظيم، لدرجة أن كثيرا منهم يحاولون الانتساب إليهم، لكنها علاقة ولاية دينية (أي حب ودين وولاء للرسول وآل بيت النبوة) وليست ولاية حكم وسياسة تفرض على الناس فرضا، سواء عن جدارة أم غير جداره.

ويسمي النورسي أهل السنة (شيعت الولاية)... يقول : إن المحبة المفرطة التي يوليها شيعة الولاية لسيدنا علي رضي الله عنه، وتفضيلهم له من جهة الطريقة لا تجعلهم مسئولين بمثل مسئولية شيعة الخلافة، لأن أهل الولاية ينظرون نظرة المحبة إلى مرشديهم حسب مسلكهم. ومن شأن المحب الغلو والإفراط والرغبة في أن يرى محبوبه أعلى من مقامه. فهم يرون الأمر هكذا فعلا".

" فأهل الأحوال القلبية يمكن أن يعذروا أثناء غليان المحبة لديهم وغلبتها عليهم ولكن بشرط ألا يتعدى تفضيلهم الناشئ من المحبة إلى ذم الخلفاء الراشدين وعداوتهم، وألا يخرج عن نطاق الأصول الإسلامية [٢].

---

(١) المرجع السابق - ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ٣٥.

ويرى النورسي أن الأحاديث الواردة في مدح شيعة علي ومحبي آل البيت إنما تعود إلى هؤلاء وحدهم. يقول : " أما الثناء النبوي لشيعة علي ﷺ كما ورد في أحاديث نبوية، فإنما يعود إلى أهل السنة والجماعة، لأنهم هم المتبعون لسيدنا علي ﷺ على وفق الاستقامة، لذا فهم شيعة سيدنا علي ﷺ [أي هم الشيعة الحقيقيون المتبعون لسنة الرسول القويمة].

" وقد جاء في حديث صحيح صراحة، أن خطورة الغلو في محبة سيدنا علي ﷺ كخطورة الغلو في محبة سيدنا عيسى (عليه السلام) على النصارى "[١].

ويستطرد النورسي، فيفصل القضية على نحو أعمق، مقارنا بين مزايا أبي بكر وعمر وعثمان التي جعلتهم الأجدر بالاستخلاف في شؤون السياسة والحكم قبل علي، وبين مزايا (علي) التي تجعله وآل بيته الملتزمين بالإسلام- الأجدر دائما في شئون الدين. فيقول : " إذا ما وضع في كفة ميزان الفضائل الشخصية لسيدنا أبي بكر ﷺ، أو فضائل سيدنا عمر الفاروق ﷺ وما قام به كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتهما، ووضع في الكفة الأخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي ﷺ، ومجاهدات الخلافة في زمانه، وما اضطر إليه من معارك داخلية دامية أليمة، وما تعرض له بهذا من سوء الظن، فلا ريب أن كفة سيدنا أبو بكر الصديق، أو كفة سيدنا عمر الفاروق ﷺ عنه، أو كفة سيدنا ذي النورين ﷺ، هي التي تكون راجحة ... وهذا الرجحان هو الذي شاهده أهل السنة والجماعة تكون راجحة. . وبنوا تفضيلهم عليه [٢].

لكن على الجانب الآخر يقف (الإمام علي رضي الله عنه) قائدا لا يبارى في مجال خاص لا يشاركه فيه أحد. . وهذا المجال يحدده النورسي في عبارته التي يقول فيها :" إن سيدنا عليا ﷺ لا يباريه أحد من جانب كونه الممثل في ذاته للشخص المعنوي

(١) المرجع السابق، ٣٥.

(٢) النورسي : اللمعات ٣٥.

لآل البيت، والذي تجلي في هذه الشخصية المعنوية من حيث الوراثة النبوية المطلقة وذلك لأن السر العظيم للرسول الأعظم ﷺ في هذا الجانب " [١].

فهكذا تنقسم الأدوار تقسيما يجب أن يتكامل لا أن يتصادم. فالشأن السياسي هو شأن الأمة وفق نظام الشورى ومؤهلات الحكم والمصلحة العامة، وفي إطار أن " الأئمة من قريش " إذا كانوا الأصلح، فهم في هذه الحالة – فقط – الأحق والأولى ...!!

أما الشأن الديني والدعوى فيجب أن ينهض له آل البيت، وأن يجعلوه محور حياتهم، وأن يكونوا الأئمة فيه، وأن يأخذوا بيد أهل السياسة وجميع أفراد الأمة إلى الحق كما أراده الله، وكما طبقه رسول الله ﷺ الذي كان قرآنا يمشي على الأرض.

أما الخلط بين الأدوار، فمن شأنه التصادم والتنازع. وهو ما حدث فعلا، وكان سببا في كوارث وفتن كثيرة في تاريخنا.

وقد آن طي هذه الصفحات وجعلها (دراسة تاريخية) مثل دراستنا لآراء المعتزلة والكلاميين الآخرين ... نأخذ منها ما ينفعنا لا ما يضرنا، وما يوحدنا لا ما يفرقنا.

ومن ثم نكل بقية آرائهم إلى ظروف عصرهم. . التي أحاطت بهم. . وإلى رب العالمين..

"تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ". [٢]

من أجل التقدم خطوة نحو الوحدة، ومن أجل الوقوف معاً ضد القوى التي تتربص بالجميع. . سنه وشيعة. .

ومن أجل أن نقدم – معا – حضارة إسلامية. . تجمعها ثوابت متفق عليها من الجميع لا تتوافر لأية أمة أو حضارة أخرى. .!!

---

[١] المرجع السابق : ٣٤.

[٢] سورة البقرة : ١٤١.

سعيد النورسي والموقف من الحكام

ألمعنا إلى أن صفحات تاريخنا الإسلامي تحفل بمئات النماذج التي تؤكد الارتباط بين العلماء والأمراء، وتؤكد أن نتيجة هذا الارتباط كانت دائماً خيرا وبركة على الأمة ؛ تحقيقا لتقدمها، ونصرا لها على أعدائها، ولا سيما إذا كان الأمراء أو الحكام مخلصين في هذا الارتباط ويشعرون بأهمية العلماء، ويحترمون مشورتهم، ويخضعون لحكم شريعة الإسلام عندما يقضي أو يفتي العالم – أو الفقيه أو القاضي - بحكم الشريعة الغراء، شأنه في ذلك شأن بقية المسلمين .. فالحكام والمحكمون سواء أمام شريعة الله ..

وقد بين لنا التاريخ- بجلاء- أن عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي تحقق لهم النصر بإذن الله، ثم بموازرة العلماء، كما بين التاريخ أن صلاح الدين- بخاصة- كان يسعى إلى العلماء المخلصين ويستشيرهم ويستعين بهم، وأنهم قاموا بدور أساسي في انتصاراته على الصليبيين، وتوحيد الصف الإسلامي إلى جانبه !!

وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد (٥٣٩- ٦٣٢هـ / ١١٤٥ــ ١٢٣٤م) والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (ت ٥٨٥هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩- ٥٩٧هـ / ١١٢٥ــ ١٢٠٠م) . الذي كان قلمه كما يصف المؤرخون أشد وأنكى على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى أنفسهم، وآية ذلك قوله: " وكان يأمرني بإجابة كتب الملوك في حالتي سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي " وشهد مؤرخو الغرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبل الخلق .

ويعد أبو علي محيي الدين عبد الرحيم بن علي البيساني العسقلاني (٥٢٦ ـ ٥٩٦هـ/ ١١٣٥ـ ١١٩٩م)، المعروف بالقاضي الفاضل- من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين .

وفي العصر المملوكي برز من علماء المسلمين كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام العزّ بن عبد السلام (سنة ٦٦٠هـ)، وتقي الدين عبد الوهاب بن نبت الأعز قاضي قضاة الشافعي (سنة ٦٥٤هـ)، وهو صاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ)، وهو أشهر من أن نقف عنده !!. . .

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم .

وبيقين فإن هذا الموقف الأساسي والحضاري الذي يجب أن يكون قائماً، وأن يكون التعاون على أفضل ما يكون بين العلماء والحكام .

بديع الزمان النورسي نموذج للتعامل مع الحكام المنحرفين :

ويمثل بديع الزمان سعيد النورسي نموذجا آخر- لمواقف أخرى- كثيرا ما تقع في عصور الضعف والاستخذاء والهوان .. وذلك عندما يكون الحاكم طاغية كارها للإسلام، موجها ضده من القوى الشيطانية .

فماذا يفعل الداعية أو العالم المسلم في معالجة وصفية كهذه ؟ ..

هل يلجأ إلى الاعتزال وترك الميدان للمجرمين من أعداء الإسلام ؛ مجففي منابع الإيمان ..؟ ..

أم يلجأ إلى ولاة حركات العنف والثورة ؟

أم يصبح تابعا دليلا للنظام ؛راضيا بأي موقع يظن أنه يمكنه أن يؤثر من خلاله ؟..

أم يصطنع لنفسه منهجية دعوية ؛ بعيدة عن كل هذا، معتمدا على الله، واثقا في أن (الله أكبر) من كل الضغوط العابرة، وواثقا من أن الحاكم الظالم إنما أرسله الله ابتلاء وتمحيصا، وبالتالي فالعلاج يكون بتغيير النفوس والأوضاع، وليس بالثورة على الطاغية الظالم؟

لقد كان النورسي واعيا بالمعادلة على وجهها الصحيح ؛ ولهذا فإنه لم يكن أبدا داعية فتنه أو أي عمل عنيف ..

ولقد تعرض النورسي لموقفين كبيرين في حياته، لهما صلة بأعمال العنف، وتعرض للمحاكمة في كلا الموقفين، ونال البراءة القانونية فيهما، على الرغم من أنه لم يسلم من الملاحقة وتجاوز القانون الذي درج عليه رجال الشرطة السرية ؛ الذين لا يعترفون لا بالشريعة ولا بالقانون !!.

ففي ٥ نيسان ١٩٠٩ م قام " سهيل باشا " و" محمد صادق " و"الفريق رضا باشا" و " الدرويش وحدتي " مع آخرين بتشكيل جمعية " الاتحاد المحمدي " في استانبول وأعلن عن تشكيلها بعد اجتماع ديني حاشد لم ترى استنبول مثيلا له في جامع " أيا صوفيا " .

كانت هذه الجمعية رد فعل للمخاوف التي بدأت تسري بين صفوف الشعب من مظاهر العداء للإسلام التي بدأت تسيطر على مقاليد الأمور، وكذلك في بعض الصحف التي بدأت بنشر المقالات الإلحادية، وقد حضر: " بديع الزمان " هذا الاجتماع يحف به جمع غفير من طلاب المدارس الدينية، وألقى في هذا

الاجتماع خطبة استمرت قرابة ساعتين حث فيها الجميع على التمسك بآداب الإسلام، كما تناول فيها جميع القضايا المهمة آنذاك والتي كانت تشغل الأذهان [١].

وفي ٣١مارس ١٩٠٩م قامت حركة عصيان وتمرد اتهم بإثارتها السلطان عبد الحميد وهو منها برئ، واتخذت ذريعة لعزله عن العرش.

وقد بدأت الحركة قرب منتصف ليلية ٣١مارت (١٣نيسان) في ثكنة"طاش قشلة" عندما قام جنود " آودجي طابوري " بحبس ضباطهم في الغرف ثم تدفقوا إلى ساحة " سلطان أحمد " وبدأوا عند حلول صباح اليوم التالي بإطلاق الرصاص في الهواء مما ولد فزعاً ورعباً عند الأهالي، ثم أخذوا يهتفون :

- نريد الشريعة ! نريد الشريعة ! [٢].

ولم تلبث "سلانيك " وهي مركز يهود الدونما والاتحاد والترقي أن انهالت بالبرقيات على قصر "يلدز" تتهم السلطان بأنه هو المدبر لهذا التمرد لكي يقضي على المشروطية الثانية (الدستور) وعلى جمعية الاتحاد والترقي حامية هذه المشروطية .

وأخيرا تقرر إرسال قوة من سلانيك للقضاء على هذا التمرد [٣].

وقد خرجت خذه القوة من سلانيك يوم ١٥ نيسان، ووصلت إلى ضواحي استانبول يوم ٢٢ نيسان وتمكنت من السيطرة على الوضع .

---

(١) أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص ٥٥

(٢) أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص ٥٦

(٣) أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص ٥٧، ٥٨.

وكـان " سـعيد النورسـي " مـن بـين الـذين قدمـوا للمحكمـة العسـكرية التـي رأسـها الحـاكم العسـكري " خورشـد باشـا " المعـروف بقسـوته وبطشـه، وكانـت هـذه المحكمـة فرصـة طيـبة للاتحاديـين لكـي يتخلصـوا مـن خصـومهم بحجـة اشـتراكهم في هذه الحادثة أو تعاونهم مع القائمين بها .

ومـع أن " بديـع الـزمان " لـم تكـن لـه أدنـى علاقـة بهـذه الحادثـة، بـل علـى العكـس فقـد نصـح الجـنود باحتـرام أوامـر ضـباطهم والعـودة إلـى الهـدوء والطاعـة إلاّ أن الاتحاديـين لـم يكونـوا قـد نسـوا المقـالات العنيفـية التـي كتـبها ضـد جمعـية الاتحـاد والترقـي فـي جـريدة " وولقـان "، كمـا قامـت جمعـية الاتحـاد والترقـي بحـلّ "جمعية الاتحاد المحمدي " .

وعـندما اقتـيد " بديـع الـزمان " إلـى المحكمـة، كـان هـناك مـا يـزيد عـن عشـر جـثث مـن المشـنوقين تتدلـى مـن أعـواد المشـانق المنصـوبة فـي باحـة المحكمـة العسكرية .

وقـد دخـل " بديـع الـزمان " قاعـة المحكمـة بخطـى ثابـتة لـيواجه المحكمـة العسـكرية برئاسـة " خورشـيد باشـا " الـذي ابـتدره قـائلاً بلهجـة امتـزج فـيها الـتهديد بالسخرية :

ـ وأنـت أيضـا كـنت تدعـو إلـى " الشـريعة " وتطالـب بهـا ؟! انظـر ! إن مـن يطالـب بهـا يشـنق هكـذا (وأشـار بـيده إلـى جـثث المشـنوقين الظاهـرة مـن خـلال نافـذة المحكمـة) فقـام " بديـع الـزمان " وألقـى أمـام المحكمـة دفاعـاً جـريئاً رائعـاً نقـدم هـنا مقتطفات منه، قال فيه :

إننـي إذ أقـف فـي عـالم البـرزخ فإننـي أزن كـل شـيء بميـزان الشـريعة، والإسلام وحده هو ملتي، لذا فإني أقيّمُ كلّ شيء من وجهة النظر الإسلامية .

إنني إذ أقف في عالم البرزخ الذي تدعونه " السجن " منتظراً قطار الآخرة في محطة " أعواد المشانق " ومنتقداً الأحوال الغادرة للمجتمع الإنساني، فإنني هنا لا أخاطبكم وحدكم بل لعلي أخاطب بني الإنسان بأجمعهم [١].

وقال أيضاً : إن هذه الحكومة - في عهد الاستبداد - كانت تعادي العقل، أما الآن فإنها تعادي الحياة بأكملها، فإذا كان هذا هو شكل الحكومة ومنطقها . فليعش الجنون .. وليعش الموت .. ولتعش جهنم للظالمين وللطاغين .

تقولون : لقد دعوت أنت أيضاً إلي الشريعة .. وأنا أقول : بأنه لو كان لي ألف روح كنت مستعداً للفداء به في سبيل حقيقية شرعية واحدة .. ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة وهي العدالة المحضة وهي الفضيلة .. الشريعة الحقة وليست الشريعة التي طالب بها المتمردون .

تقول : هل انضممت إلى "الاتحاد المحمدي "، وأقول : نعم .. وبكل فخر ..

فأنا أصغر فرد من أفراد هذا الاتحاد، ولكن بالصيغة التي أعرّفها، ومن الذي يرضى أن يبقى خارج هذا الاتحاد سوى الملحدين .. أروني مَن ؟! " .

وبعد أن شرح لمحكمة كيف أنه عندما سمع بتشكيل جمعية بهذا الاسم خشي جداً أن يقترف بعض الأشخاص وتحت هذا الاسم المبارك بعض الأخطاء، ثم إن هذا الاسم حق عام للمسلمين وليس من حق أحد أن يضيق حدوده [٢].

وتكلم بديع الزمان .. وكأنه موج هادر، أو سبيل جارف .. وانقلب الوضع فأصبح وهو الذي يحاكم، وهو الذي يتهم، وهو الذي ينتقد، وأصبحت هيئة

---

[١] أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص ٥٧ ؛ ٥٨ .

[٢] اورخان محمد علي ، مرجع سابق ص ٥٨ ، ٥٩.

المحكمة وكأنها هي المتهمة، فلم يعتذر، ولم يستعطف، ولم يسترحم .. لم يتلجلج، ولم يتلعثم، ولم يتردد .. وفغر أعضاء المحكمة أفواههم دهشة .. كانوا تجاه نموذج فريد لم يجربوه بعد .. لم يكن كالمتهمين السابقين الذين وقفوا أمامهم والذعر يلفهم، لا يستطيعون رفع أنظارهم الوجلة إلى وجوههم ..كان شيئاً آخر نموذجاً فريداً ومهيباً، وأحسوا أنهم يدينون له بالاعتذار، ففي جلسة واحدة فقط صدر قرار الحكم ببراءة " بديع الزمان " من تلك المحكمة الرهيبة التي أرسلت العديد إلى حبال المشنقة [١].

أما التجربة الثانية فقد وقعت ضد كمال أتاتورك وجمعية الاتحاد والترقي، وكانت من داخل الجيش العثماني أيضا .. وكان سعيد النورسي قد استشير فيها من قبل قائدها الشيخ (سعيد بيران)، ورفضها، وتنبأ لها بالفشل، وبإراقة كثير من الدماء هدرا، ونصح بالكف عنها ؛ إلا أنها وقعت رغما عنه، ومع ذلك حوكم كذلك، وكأنه أحد المشاركين فيها !!

لقد أرسل سعيد بيران إلي الشيخ النورسي رسالة جاء فيها ما يلي :

يا سيدي ؛ إن نفوذكم كبير فإذا تفضلتم واشتركتم في حركتنا هذه فإننا سنغلب .

أي كان يدعون صراحة إلى الاشتراك في تلك الحركة المسلحة، فأجابه "النورسي" برسالة جاء فيها :

" ... نحن مسلمون والأتراك إخواننا فلا تجعلوا الأخ يقاتل أخاه، فهذا لا يجوز شرعاً، إن السيف لا يُشهر إلا بوجه الأعداء الخارجين، ولا يستعمل السيف في الداخل . إن السبيل الوحيد أمامنا للخلاص في هذا الزمان هو القيام

---

(١) أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص ٦١ .

بإرشاد الناس إلى حقائق القرآن وإلى حقائق الإيمان، والقيام بمكافحة الجهل الذي هو أكبر أعدائنا، لذا أرى أن تصرفوا النظر عن محاولتكم هذه لأنها محكومة بالإخفاق، إذ سيهلك الآلاف من الرجال والنساء بسبب حفنة من القتلة والمجرمين "

ولكن نصائح " النورسي " لم تجد آذانا صاغية من الشيخ " سعيد بيران " إذ بدأ بثورته المعروفة التي شاركت فيها كثير من القبائل الكردية [١].

" وكما توقع النورسي فقد أخفقت حركة الشيخ سعيد، لأنها لم تنطلق من الوعي الإسلامي الشامل والإعداد الكامل، وكانت نتائجها وخيمة، فقد اشتدت الحملة على الإسلام وأهله أكثر من ذي قبل، وانتهك اللادينيون فيها كرامة الشعب المسلم تدميراً وقتلا وإفساداً وإبعادا له عن كل ما يمت إلى الإسلام بصلةٍ. بينما استمر النورسي في تطبيق نظريته التغيرية عن طريق نشر حقائق الإسلام بالأدلة والبرهان، وتكوين الجيل المؤمن الصالح، وبث الوعي الإسلامي بخطورة الحملة على الإسلام والمسلمين، وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية، ونقل التربية الإسلامية إلى داخل البيوت [٢].

ومما يتصل بموضوع حديثنا نذكر أنه أثناء إقامة النورسي في " وان " قرأ في الصحف المحلية خبرا مدهشا هز كيانه كله هزا عنيفا، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم :" مادام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم ؛ لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به" .

---

(١) أورخان سابق محمد علي ؛ مرجع سابق ص ١٢٥، ١٢٦ .

(٢) أورخان محمد علي ؛ مرجع سابق ص١٣٠.

وقد زلزل هذا التصريح الآثم كل كيانه وصمم بينه وبين نفسه على أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله، حيث قال : " لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وفي شتاء سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار سعيد النورسي بلاد الشام، حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعا غفيرا من المصلين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان (الخطبة الشامية) التي شخص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، ورأى أنها تنحصر في الأمراض الستة التالية :

١- اليأس أو القنوط الذي ما زال يحد أسباب الحياة في نفوسنا .

٢- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية .

٣- حب العداوة والبغضاء وإيثار الخلاف .

٤- تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض .

٥- ذيوع الاستبداد، مثل ذيوع الأمراض المعدية المختلفة، فالاستبداد ممتد في كل حياتنا .

٦- حصر الهمة في المنفعة الشخصية، دون الالتفاف إلى النفع العام .

وعندما دعي ليقابل حكومة كمال أتاتورك وأعضاء البرلمان في أنقرة لبى الدعوة وذهب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢م، قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالا حافلا، إلا أنه لم يسعد في أنقرة كثيرا، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة، كما أن تصرفات مصطفى كمال أتاتورك وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيرا، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانا في

١٩/ ١/ ١٩٢٣م يتضمن عشرة مواد موجها إلى النواب يعظم ويذكرهم بالإسلام، مستهلا بـ (يا أيها المبعوثون : ... إنكم لمبعوثون ليوم غظيم)

وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزع بين النواب، وتولى إلقاءه (كاظم كرة بكر- القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائباً من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه .

ولم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان ؛ فاستدعى بديع الزمان وحدثت مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفي كمال :

" لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هناك للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل بين هذا المجلس "!!

فأجابة بديع الزمان مشيرا إليه بإصبعة في حدة :

" باشا .. باشا .. إن عظم حقيقة بعد الإيمان بالله هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن، وحكم الخائن مردود "

وعندما ظهرت للعيان المؤامرة على الإسلام – دينا وحضارة وخلافة – وظهرت هيمنة العلمانية والصهيونية علي تركيا – بجلاء – لم يبدد سعيد النورسي وقته في البكاء ولعن الظلام، بل برمج حياته علي أساس مقاومة الإلحاد العلماني الماسوني الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مسلحا بالمكر والتآمر والانحلال الأخلاقي، وتوجيه الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية .

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠ حين وافته المنية، عاش سعيد النورسي بجاهد بقلمه وجهودة التربوية والدعوية، وأمامه هدف التربية القرآنية والنبوية، واقتلاع بذور الإلحاد التي سعي العلمانيون والماسون إلى غرسها في الأرض التركية والعالم الإسلامي، وكانت موسوعته (رسائل النور) خلاصة مشروعة العلاق لبعث الأمة الإسلامية بعثا إسلاميا وعصريا .

وكما رأينا، فإنه في سبيل إنقاذ الإيمان اشتغل سعيد النورسي بالسياسة وتعاون مع الذين يمكن التعاون معهم من السياسين ورجال الخلافة العثمانية، وقدم للسلطان اقتراحات بشأن جامعة إسلامية عالمية في آسيا تضاهي الأزهر في أفريقيا .

لكن النورسي عندما وجد أن الإصلاح عن طريق سياسة عاجزة وساسة لا يرون قيام النهضة على أساس الإسلام والهوية الحضارية القرآنية المستقلة ؛ أقلع عن الاشتغال بالسياسية وابتعد عن كل صور الصدام بالساسة؛ ومن ثم تفرغ لبناء الأمة من موضع الفقه العصري للقرآن . فقها ينتهي ببناء الفرد العصري المؤمن، ومن ثم بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية القادرة علي دحر الإلحاد – بلغة العقل والعلم والدين معا – وبناء إنسانية مؤمنة معاصرة .

وقد قدم لنا النورسي – بمواقفه تلك – نموذجا يحتذي في التعامل – والتفاعل حسب الظروف – مع أولي الأمر في ظل الظروف الصعبة – ظروف الخيانة الدينية والحضارية .

عالميـــة الأدب الدعـــوي النورسي

منذ نزل القرآن في السنة لأولى من البعثة (٦١٠م) على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام – في مكة المكرمة، وهي يُتلى من كل المسلمين على تعاقب العصور، فيجدونه في كل قرن وعصر – غضا طريا كأن عهده بالوجود أمس، كما قال أحد المستشرقين ....

ومهما قرأ المسلم في كتاب الله. المئات أو الآلاف من المرات – فإنه في كل مرة يجد فيه متعة جديدة وذوقا جديدا وفكرا جديدا، وفي بعض الأحيان – ولاسيما في ساعات الاندماج في فهم القرآن والتألق الروحي – تتجلى للقارئ بعض الآيات التي قرأها مئات المرات قبل ذلك، فتبدو له وكأنه يقرأها لأول مرة ...

وبعض المجددين، من ذوي الهمم العالية والنفوس الذكية، تبدو لهم آفاق القرآن الكونية والإنسانية والحضارية على نحو يسمح لهم بقراءة خاصة للقرآن، تنطلق من داخل القرآن لا من خارجه، وتنطلق من إيمانهم العميق به وولائهم له – وليس لغيره، أو لتحريف كلمة عن مواضعه – أو تأويله بما يخالف قواعد اللغة المعجمية المعزوفة، والمجمعية المعتمدة من ذوي الاختصاص وأهل الذكر ...

هذا البعض المجدد تبدو لهم آفاق كونية وإنسانية وحضارية في القرآن لا يستطيع الوصول إليها من لا يملكون العقل والقلب الرفيعين، فيقدم هؤلاء المجددون للناس قراءتهم وفقههم للقرآن بروح جديدة تقود إلى النهضة الروحية والعقلية الحضارية. .

إن القرآن الذي يقدمونه كتاب عقل وفكر، لكنه – في الوقت نفسه – كتاب تربية نفسية ووجدانية وذكر لله وعبادة له ... وهو - أيضا – كتاب علم

– بالمعنى الكامل لكلمة العلم، إذ يعطي مفاتيح وأضواء في كل العلوم ليبني عليها الناس وينطلقون منها دون أن يقفوا عندها ... إنه كتاب الله المبين لكل شيء (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ....

وهو كذلك كتاب أدب وبلاغة وبيان معجز، لا يستطيع البشر الوصول إلى الإتيان بسورة من مثله !!!.

وقد فتح الله على بديع الزمان سعيد النورسي، فقدم – من فيض القرآن وتجلياته، رسائل النور، حجة قرآنية عصرية على العقل والإنسان المعاصرين... وعلى الحضارة الحديثة. .

ولد سعيد في تركيا سنة ١٨٧٦م ومات سنة ١٩٦٠م ... أي أنه عاش سبعا وثمانين سنة ... كانت كلها ... علما وفقها وجهادا .... أبوه اسمه ميرزا، كان رجلا صالحا يتجنب الحرام. . وكانت أمه (نورية) ..... وقريته (نورس) التابعة لقضاء خيزان من أعمال ولاية بتليس.

وقد ساقته الأقدار إلى أن يترك كل الدواعي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... فترك أمجاد الدنيا – مع أنها ألحت عليه، وترك بناء الأسرة، وترك تكوين ثروة، مع أنها عرضت عليه .... وساقه الله إلى الحياة مع القرآن وحده. . إلى رسائل النور ...

الرسائل التي تقدم علم الإسلام، ووسائل تقدم المسلمين، وعودتهم لدينهم عودة عصرية قائدة منتصرة ... متبوعة لا تابعة ... شهيدة على الناس لا متسولة أو منهزمة أمام الناس. . تقدم ذلك وغيره بأروع الأساليب ... المقتبسة من نور القرآن.

الأسس الفكرية لعالمية للأدب عند النورسي :

لم يفصل بديع الزمان سعيد النورسي(١٢٩٠ – ١٣٧٩هـ) (١٨٧٣ – ١٩٦٠م) في فكره ؛ انطلاقا من فقهه للطبيعة القرآنية – بين ما هو ديني، وما هو دنيوي، وبين ما هو متصل بالعقيدة (التوحيد ومقتضياته الكونية والعبادية) وما هو عقل متصل بالشريعة، وما هو وجدان متصل بالقلب والأدب والفن، وما هو أخلاق ونظرة للإنسان والكون والحياة يلتقي مع كل ذلك ويتداخل معه.

- وفي رسائل النور، انطلاقا من المنهجية القرآنية، لا تجد فواصل قاطعة، ولا تجد منهجية مدرسية أو أكاديمية تقدم لك المعارف أو القضايا عبر سلسلة أو حلقات من الأبواب والفصول والمباحث، بل تجد انسيابا هنا، يلتقي مع انسياب هناك، قد يكون التركيز في جانب إبراز عقيدة التوحيد، لكن الاعتماد في تأكيد هذه الرؤية الإيمانية القرآنية النورسية يقوم على حقائق الكون والإنسان والفكر الرصين وتجليات أسماء الله الحسنى في الكون والإنسان (الأنا الإنسانية التي تمثل مرآة أسماء الله الحسنى ونقطة تجلياتها)... ولأن الاعتماد في الرؤية الإيمانية يقوم على أساس هذه النظرة الشمولية غير التقليدية، فإنه بالتالي يعتمد في عرضه على أسلوب لا يمكن أن يكون أسلوبا رياضيا أو علميا خاليا من الروح والفكر الروحي، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يكون أسلوبا أدبيا بلاغيا إنشائيا ؛ حسبه أن يقرع الأذن، ويحرك العاطفة، ثم لا يترك أثرا في توجيه الصياغة السلوكية الفردية أو الاجتماعية في الحياة، وكأنه أقرب إلى الشعر بمفهومه عند أكثر المحدثين والحداثيين.

إن (الأدب) – انطلاقا من المنهجية القرآنية التي انطلق منها النورسي ... يجب أن يكون (كالعلم) في انضباطه بالحق، وفي توظيفه توظيفا يتكامل مع (العقل). أو مع العلم – في خدمة الدين والحق والحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بإنسانية الإنسان.

ولـئن كـان العقـل والعلـم يخاطـبان جانـبا ضـروريا ومهمـا فـي كـيان الإنسـان، فإن الأدب والوجـدانيات يخاطبان كذلك الجانب الآخر المتم للحقيقة الإنسانية.

وقـد دفعـت حضـارة المسـلمين فـي قـرونها الأخيـرة ثمـنا غالـيا عـندما فقـدت الـتكامل بـين الجانبـين، وأهملـت جانـب العقـل والعلـم ومقتضـياتهما، ولسـوف تدفـع الحضـارة الماديـة (الأورو – أمـريكية) الحديـثة ثمـنا باهظـا لإهمالهـا دور الأدب والوجدان والروح بطريقة أخلاقية توازنية إيجابية إنسانية. .

ولـئن كانـت المـنظومات الحضـارية اللائقـة بالإنسـان والضـامنة لسـلامة مسـتقبله الحضـاري تقتضـي الـتكامل بـين لغتـي العلـم والأدب، وبـين قضـاياهما، وآلـياتهما فـي الحـدود المقـبولة منهجـيا، وأهـدافهما الوظيفـية الإنسـانية والكونـية والإلهـية. كمـا الـرؤية النورسـية التـي عبـرت عـنها بتفصـيل ووضـوح رسـائل النور ....

لـئن كـان الأمـر كـذلك، فـإن المعـرفة الحقـة الصـحيحة الكفـيلة بتحقـيق سـعادة جنس الإنسـان لـن تـتحقق – كـذلك – إلا مـن خـلال التـرابط والـتكامل بـين المعـرفة الكونـية، الشـاملة للوعـي بالنوامـيس والعلـوم الطبيعـية وتسـخيرها، والمعـرفة الإنسـانية المعبـرة عـن مفـردات الكيـنونة الإنسـانية، وكـل مـا يـتعلق بهـا باطـنا وظاهـرا، والمعـرفة الإلهـية التـي تـربط بوجـود الله وتوحـيده وربوبيـته وتجلـيات أسمائه الحسنى في خلقه وفي كونه.

ومـن حقـنا – بـل مـن واجبـنا – أن ننـبه إلـى التكاملـية فـي الـرؤية النورسـية بـين العقـل والعلـم – مـن جانـب – والأدب والوجدانـيات – مـن جانـب آخـر، كمـا أنـه مـن حقـنا أن نشـير إلـى التكاملـية فـي (نظـرية المعـرفة النورسـية) إلـى الـتكامل بـين مـا هـو كونـي يعـتمد علـى العقـل والعلـم، وإنسـاني يعـتمد علـى القلـب والـروح وأدوات الأدب والفـن، وإلهـي مصـدره الوحـي، يقـود الجانبـين السـابقين إلـى تحقـيق

السعادة الحقة للإنسان الفرد والإنسان المجموع صانع الحاضرة، ويمكن الإنسان من أن يكون إنسانيا وربانيا مترجما من خلال الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... (بالأنا) – أي بالشعور بالوجود والإرادة، وبالقدرة على تمثل معظم أسماء الله الحسنى في الكون .... كما تمثل المرآة الكائنات التي تظهر أمامها.

وفي ضوء هذا تتعاشق المعارف الثلاث فيما بينهما (الكونية، والإنسانية، والإلهية) كما تتعاشق زوايا مثلث الأضلاع، تقوم قاعدته في أحد طرفيها على المعرفة الكونية، وعلى المعرفة الإنسانية في طرفها الآخر، بينما تعلو قمته (المعرفة الإلهية)[1]. ولعلنا من خلال هذه الرؤية التكاملية نعرف موقع الأدب ورسالته في فكر النورسي... ونعرف – أيضا – طبيعة الرؤية النورسية الشمولية القرآنية.

ولكي يتعامل المسلم مع الكون والحياة – في الرؤية النورسية – لابد له من تحريك طاقاته كلها، أي كيانه كله، أي ملكاته العقلية والروحية والوجدانية، فإن تحريك طاقة العقل وحده بالعلم، أو القلب وحده بالأدب والفن، لن تحقق الرؤية الصحيحة القادرة على النفاذ إلى أعماق الكون، فمن الضروري أن تتحقق الرؤية الشمولية التي لا تمنع اعتماد السببية في شؤون الحياة، ولا تمنع كذلك من نفاذ الرؤية الإيمانية بعيدا عن قفص السببية، في محاولة لاختراق الجدران الصلبة للسببية انطلاقا إلى الأبد اللامحدود، ذلك الذي نسمع قوانين إيقاعه في جنبات الروح والوجدان ؛ حيث تعجز السببية عنه وتتكفئ دونه ... ولهذا فإن (النورسي) لا يرى في عالم " الشهادة "الكثيف معضلة ما تفقد

---

(1) اديب ابراهيم الدباغ : نظرية المعرفة عند النورسي ص ٧٥ : ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين عن النورسي ط تركيا ١٩٩٦.

بصيرته الروحية قدرتها على النفاذ إلى "عالم الغيب" وراء هذا الكون... بل إن عالم الشهادة يشكل في حسه لوحة إعجازية خارقة في إعجازيتها، رسمتها وأبدعت فيها يد المبدع البارئ القدير جل جلاله، غير أنه – أي عالم الشهادة – يظل رمزا وإيماءً وظلا يدل لشبحيته وظله على عالم أجمل وأقدس وأروع ؛ أبدى لا نهائي ؛ ينتظر عيون المؤمنين الوالهة الشغوفة بالجمال[1].

- وبقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري إلى مشاهدة الجمال والأنس به، كذلك فإن الجمال نفسه يبادلنا هذا الشوق، ويطلب لنفسه صفوة من المشاهدين الذواقين، الذين يحسنون المشاهدة.

ويوضح (النورسي) هذه العلاقة بين الإنسان (المشاهد) (بكسر الهاء) وبين إبداع الله في الكون (المشاهد) (بفتحها) فيقول : "من الحقائق المستقرة الثابتة أن كل ذي جمال فائق يحب أن يشاهد جماله بنظره وبنظر غيره، وينظر إلى محاسنه بالذات، وبالواسطة، ويشتاق إلى مرآة فيها جلوة جماله المحبوب، وإلى مشتاق فيه مقاييس درجات حسنه المرغوب ؛ فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد، وهما يقتضيان وجود مستحسنين متنزهين في مناظرهما، ووجود مشتاقين متحيرين في لطائفهما [2].

وعن هذا الإيمان الذي تؤكده المعرفة، والمعرفة التي يقويها الإيمان، وعن التجاذب بين المشاهد والمشاهد، وبين ما هو عقلي عملي، وما هو وجداني أدبي يحدثنا أحد طلاب رسائل النور قائلا : " كنت أحس فراغا كبيرا في نفسي، وفي

---

(١) اديب الدباغ المرجع السابق ص ٧٩.

(٢) بديع الزمان النورسي – المثنوي العربي النوري ص ٩٢ط١ ١٤١٥هـ ترجمة إحسان الصالحي مصر – نشر دار سوزلر للنشر بالقاهرة.

روحي، وبينما كنت أبحث عن كتاب لأقرأه وجدت رسائل النور التي ما إن قرأتها حتى علمت بأنني لن أستطيع بعد مفارقتها، إذ أحسست بأنها هي التي تسد هذه الحاجة القلبية لدي، لأنني وجدت فيها البراهين والأدلة العقلية والإيمانية المنقذة من الشبه العلمية والإيمانية، وتخلصت بذاك من القلق، ومن الضيق الذي كانت الشبهات تحدثه وتولده في، وأدركت من هذه الحقائق أن رسائل النور كتبت لإنسان هذه العصر.

وقد أحسست أن إيماني يقوى كلما قرأتها، وهذا أنقذني من السقوط في هوة الضلالة، وأنقذني من العدوان على ديني الجامع لكل جوانب الحق والحقيقة، وهما أسس أرقى مدنية، وأنقذني من أن أكون لقمة سائغة يلتهمها الوحش الأحمر [1].

إننا نرى هنا – في أسلوب تلميذ النورسي- رشحا لأسلوب النورسي نفسه، فهو أسلوب علمي أدبي – عقلي روحي ووجداني في نسيج واحد.

لقد كان من بديهيات الأمور – ولا بد – أن يكون خطاب النورسي عالميا بطبيعته، لأنه ما دام قد وهب نفسه لخدمة الكلمة القرآنية والحقيقة القرآنية والبيان القرآني، فلا بد - بالتالي- أن يكون خطابه عالميا ... عالميا في فكره ... وعالميا في أسلوبه وأدواته البحثية، وعالميا في جانبه العقلي والعلمي، وعالميا في خطابه الأدبي وأساليب تعبيراته وتخيلاته الأدبية والفنية.

كان النورسي ينفر من التحزب والفرقية والطرقية، فقد ابتعثه الله – كما ابتعث كثيرا من المجددين والمصلحين – لينقذ حقيقة إنسانية عالمية وهي الحقيقة الإيمانية.

---

(1) بديع الزمان النورسي – الشعاعات – ص ٥٩٠- ٥٩١ط ٢، ١٤١٤هـ مصر – ترجمة إحسان الصالحي – نشر دار سوزلر للنشر بالقاهرة.

فحتى لو كان خطابه للأتراك أو للعرب أو للفرس أو للأكراد، فإنه إنما كان يخاطبهم لينبههم إلى طبيعة رسالتهم التي ارتضوها حين ارتضوا الإسلام دينا، والقرآن منهجا، ومحمدا صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا.

إنها الطبيعة العالمية الإنسانية الإسلامية .....

أليس الله قد خاطب نبيه محمدا بقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[١].

وبقوله : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) [٢].

فعلى المسلمين مهما كانت أجناسهم أو أوطانهم أن ينتبهوا إلى أنهم حملة الراية بعد أستاذهم ومعلمهم محمد عليه السلام، وعليهم أن ينتبهوا إلى أن الأمانة التي ائتمنهم الله عليها، وهي (البلاغ للناس) (بالقرآن) إنما هي نور للناس جميعا إذا آمنوا بها، لا فرق بين أسود وأبيض. يقول الله تعالى : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" [٣].

فالمهم لكي يتحقق النور – أن يتبعه الناس .... . !!

وعندما عرض سعيد النورسي من خلال رسائل النور – للرؤية القرآنية في حل مشكلات العصر الحديث، لم يعرضها لتحل المشكلات في الدائرة الإسلامية أو التركية أو العربية وحدها، وإنما عرضها ليحل بها مشكلات الحضارة المادية والأوروبية كلها ...تلك الحضارة التي حبسها (العقل) في إطار (المادة) و(المنفعة) و(النسبي)، وأصبحت عاجزة عن إدراك الكمال

---

(١) الأنبياء

(٢) سبأ ٢٨.

(٣) المائدة ١٥/ ١٦.

والجمال في الروح والمطلق والغيب وضرورة الإيمان بها للكينونة الإنسانية... ولاستمرار التحضر الإنساني العام.

ولقد أصاب هذا العجز الحضارة الإنسانية بالشلل النصفي، لأن الروح أو الغيب أو المطلق لا ينفصل عن العقل والمادة والنسبي ... ولأن (المطلق) هو (المعيار) الأساسي للحق ورفض التعامل معه رفض للسير في طريق الحق، تحت ضغط الإيمان المشلول بالمادة والنسبي.

وهو المؤدي إلى عبادة الإنسان نفسه، بديلا عن عبادة الله الذي يؤمن المسلمون بأنه وضع للكون والإنسان نظاما من خلال الوحي والأنبياء، وهو نظام متطابق مع فطرة الإنسان وذوقه وعواطفه التي يتعامل معها الأدب بأجناسه المختلفة شعرا أو نثرا بالدرجة الأولى. . وهو – أي الأدب والعاطفة والفن – قبل العقول وعلومه – مسئول عن تغذية الوجدان بالجمال وعشق الصدق وملكة البحث عن الحق، من خلال أعماق الإنسان الداخلية، والنفحات الربانية التي أتى بها المرسلون من الله.

ويكمن الخير الأسمى للإنسان – كل إنسان – في أن يتوافق مع نفسه وفق هذا النظام الإلهي ... ويعد الشر هو كل ما من شأنه أن يمنع التوافق مع هذا النظام، ويظهر الإسلام من هذا المنظور الأساسي - كما يقول مارسيل بوزار صاحب كتاب إنسانية الإسلام – دين اليقين والتوازن.

فلقد كان الإسلام – بحق – حافزا على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفت في عضده على مر العصور ....فإن كل شيء في الإسلام يشكل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، ففروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية عن التماسك

والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يوميا في ساعات متماثلة تقريبا، وفي اتجاه واحد نحو الكعبة.

وتعبر النية الدينية المصاحبة للعبادات لكل شعيرة – عن وحدة الإنسان روحيا وماديا.

ويسهم الإيمان – أيضا – كما تسهم الشعائر في تضامن الجماعة الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعا نحو تحقيق عالميتها.

إن جماعة المؤمنين، وقد قامت على الدين، فإنها نجحت في الصمود أم التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية التي تسمو فوق التخوم والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيرا بذلك التفكك السياسي [١].

ويقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه) : " لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حاليا، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة، إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة، محددا بالضبط وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله [٢].

---

(١) أحمد عبد الوهاب – الحضارة الإسلامية وجهتها لله والحضارة الغربية مركزها الإنسان ص٦٢، ٦٣ الناشر دار الصحيفة القاهرة ١٩٩٩ (نقلا عن بوزار)

(٢) نقلا عن المرجع السابق : ص ٦٣

إن الفكر الحديث (كما يتابع باسكيه حديثه) على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الغربية أن حدث تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت. ذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية، بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته. إن هذه الحضارة التي أريد لها أن تكون إنسانية، إنما هي تقود في الوقت نفسه إلى نظام يحتقر الإنسان، ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف.

إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافق بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان والله خالق كل شيء ومبدعه. إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة[1].

وفي يقيننا أن رجلا مثل (باسكيه) لو أطلع على عرض رسائل النور لقضايا القرآن بهذا الشمول الأفقي والرأسي، وبهذا المنهج العقلي والكوني، وبهذا الأسلوب البلاغي والبياني، الحافل بالصور والأخلية، والتمثيل والأمثلة التي تشبع الوجدان، وتغذي العقل في آن واحد. .

في يقينا أن (باسكيه) وأمثاله من السائرين في طريق الحق لو عرفوا رسائل النور لجعلوا نشرها بين الناس وتوجيه الناس إليها هدفا أساسياً من أهدافهم. . لأنها تقدم بتفصيل واف وكاف كل ما يعبرون عنه بكلمات مجملة، - لكنها واضحة – وإن احتاجت إلى تأصيل وتفصيل.

---

(1) المرجع السابق ص ٦٤- ٦٥.

رفض النورسي للآداب العنصرية واللادينية:

كان أمرا منطقيا – في ضوء الأسس الفكرية والمنطلقات العقيدية والمرجعية القرآنية الثانية – التي أقام عليها بديع الزمان النورسي قواعد فكره، وإطار رؤيته للحياة والإنسان والكون. .

كان أمرا منطقيا أن يرفض النورسي كل الآداب المنطلقة من رؤية مادية، أو عنصرية قومية، أو وطنية محدودة، أو إلحادية فوضوية، أو وجودية عبثية دنيوية ... فكل هذه النعرات الأدبية تعكس رؤية رافضة للنظام الكوني الذي تشهد كل جزيناته – بلسان الحال والمقال – بوحدانية الله الخالق وقدرته وسمو أسمائه الحسنى وتجلياتها. .. .

وعندما شب النورسي عن الطوق – في تركيا – مع بدايات القرن العشرين، كانت هناك بقايا ذات حضور أدبي ممثلة في الأدب الديواني المتأثر بالأدبين العربي والفارسي، والذي يعرف بالأدب الإسلامي، ويعالج بعض قضايا الوجدان بطريقة صوفية، ويلتزم بالعروض في شعره، ويبتعد عن العشق الحسي والمادي [1]. ... ولعل هذا الأدب – فيما نرى- كان أكبر ما تأثر به النورسي.

وخلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين ظهر – أول ما ظهر – تيار أدبي يجنح إلى التغريب والذوبان في الغرب جملة وتفصيلا دون غربلة أو تنقية، وقد عرف هذا التيار في تركيا باسم تيار (ثروت فنون) نسبة إلى جماعة التفتت حول مجلة كانت تصدر بهذا الاسم ......لكن سرعان ما ظهر تيار

---

(1) د/ سمير رجب محمد : الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي سعيد النورسي ص ٧٨ طبع سوزلر القاهرة ط ١٩٩٥- ١٤١٦.

تغريبي آخر – بطريقة أخرى – هو تيار القومية الطورانية التي لا تظهر – بوضوح في بدايات أمرها – الخيانة العلنية للإسلام، لكنها عمليا لا تجعل له نصيبا في أدبها.

وكان أبرز شخصيات هذا التيار (ضياكوك ألب) الذي بدا تأثره الواضح بالقومية بمعناها الألماني الرومانتيكي العنصري.

وقد اتفق مؤرخو الأدب التركي على تسمية أدب هذه الفترة بالأدب القومي التركي، فكل ما كتب فيها كان يتناول الأمة التركية، تركيا فحسب، مع تأثر واضح كان يزداد مع مرور الزمن بالنزعات التغريبية [1].

ومنذ عام ١٩٤٠ ظهر ما يمكن تسميته بالأدب الحديث والمعاصر، من خلال تيارات سياسات ثلاثة عمدت إلى توجيه الأدب، وهذه التيارات هي (الأتاتوركية) نسبة إلى كمال أتاتورك الذي يدعو تياره إلى نبذ كل ما هو إسلامي، الارتماء في أحضان أوربا، والتيار القومي الذي يدعو إلى الطورانية مع مزجها بشيء من الشرق وروحانياته، وشيء غير قليل من الغرب أيضا، وكأنه يحاول تمييز تركيا في إطار الحداثة والعلمنة، وأما التيار الثالث فكان التيار الاشتراكي المساير للتيار الشيوعي العالمي.

وقد رفض بديع الزمان سعيد النورسي هذه التيارات الأبية كلها، لأنها – في حقيقتها– تقوم على رفض الإيمان بالله والدين كله، ولا تهتدي بهدي الأديان السماوية، وتنكر الألوهية صراحة أو ضمنا، وتقيم الفلسفة المادية مقام الخالق والدين المنزل. ..

---

[1] د/ سمير رجب محمد : المرجع السابق ص ٨٧، ٨٨.

وفي تحليله لحقيقة المذاهب الأوربية التي انطلقت فيها تيارات التغريب الأدبي الوافدة على تركيا والشرق الإسلامي – يرى النورسي أن الرومانتيكيين أقاموا الفلسفة الوضعية مقام الدين، بينما جعل الواقعيون المادة أصلا وخالقا بدلا من الخالق العظيم ... أما الطبيعيون فقد أسندوا القوانين الحاكمة في الكون لوهم اسمه (الطبيعة) لعدم معرفتهم بالله، وادعوا أن الإنسان أصله قرد. [1]

وفي مواجهة هؤلاء جميعا، وتعميقا لفرض رؤيتهم الإلحادية والمادية الفاسدة يتحدث النورسي عن هذه الطبيعة العمياء والصماء التي يريدون تأليهها، فيقول بإبلاغ كلام مستوحى من إعجاز القرآن البلاغي :

(إن الطبيعة ليست طابعا بل مطبعة، وهي ليست نقاشة بل نقشا، وليست فاعلة بل قابلة، وليست مصدرا بل مسطرا، وليست ناظما بل نظاما، وليست قدرة بل قانونا، إن الطبيعة شريعة إلهية، وليس لها حقيقة خارجية) [2].

ويقول النورسي أيضا : (لا يمكن لأي صدفة التدخل في هذا الكون الذي خلق بدقة وحكمة : وصنع بنظام وترتيب وبتدبير خارق، ولا يمكن لأي قوة عمياء ولا للطبيعة الحمقاء أن توجد مثل هذا التوازن، كما لا يمكن للصدفة العشوائية أن تشكل الكون من تلقاء نفسها، فلابد أن يواجهها مائة محال في كل مجال، ولكي يتحقق ذلك لابد أن تعلم كل ذرة بكل شيء وكل ما يتعلق بهذا الشيء في العالم، فإذا علمت يتسنى لها أن تصنع، ولا يتأتى للذرة هذا أبدا إلا إذا أعطيت قدرة إلهية وعلما محيطا بكل شيء، وحينئذ يمكن أن يسند تشكيل الأشياء إلى الذرة وإلى الجسد نفسه [3].

---

[1] د/ سمير رجب محمد : المرجع السابق بتصرف ٩١- ٩٢.

[2] المكتوبات : ص٦٠١ ط٢/ ١٤١٣هـ.

[3] نقلا عن سمير رجب : الفكر الأدبي ص٩٤.

وبأسلوب آخر يقول بديع الزمان في (رسالة الطبيعة) : إذا لم يسند هذا الكون المنظم والمصنوع بحكمة وموازين دقيقة إلى القدير الحكيم المطلق، وأسند إلى الطبيعة فلابد من وجود عدد من الماكينات بعدد مصانع أوروبا في قطعة أرض لكي تصبح هذه القطعة من الأرض منبتا لأنواع الزهور، لأن قطعة الأرض هذه، لو ألقيت فيها بذور جميع أنواع الزهور، لأخرجت كل بذرة نباتها دون اختلاط بينها، مع أن كل زهرة تختلف عن سائر الزهور وإذا لم يسند هذا الأمر إلى الله القادر ذي الجلال ، فلابد من وجود ماكينات بعدد أنواع الزهور في هذه القطعة من الأرض، وإلا فلا يمكن لهذه الزهور أن تنبت، وظهور هذه الزهور يثبت بداهة وجود مصانع وماكينات معنوية ومطابع صغيرة جدا، وإلا فلا يمكن أن تنسج النباتات والأشجار هذا النسيج الحي [1].

وفي تعريف الطبيعة يقول النورسي : (إن الطبيعة هي صنعة إلهية وليست بصانع ... كتاب رباني وليست بكاتب ... نقش ولا يمكن أن تكون نقاشا . دفتر وليس دار .... قانون وليست قدرة)[2].

ومن جانب آخر نجح - النورسي - في مواجهة تيارات الأدب التركية التي استوردت عناصر قلبها وعقلها من تيارات الأدب الأوروبي التي ضرب النورسي أسسها العقيدية حين ضرب رؤيتها للطبيعة والمادة والإنسان والكون ...

لقد قاوم النورسي هذه التيارات بأساليب متعددة، قرآنية، وعصرية، صامدا وكاشفا محاولاتها اللاأخلاقية لتطويع الأدب ليكون أداة لنشر الأفكار الإلحادية والجنس والعهر، فيما يسمى (الأدب المكشوف) كما أنه – في الوقت نفسه – قاوم ظاهرة تغريب التعليم، وإلغاء التعليم الديني، فضلا عن مقاومته لاستبدال النعرة القومية بالدين على النحو الذي بسطنا فيه القول من قبل.

---

(1) الكلمات ٦٤٥ وانظر سمير رجب المرجع السابق ص٩٤ وما بعدها.

(2) الكتوبات ص ٦٠١.

وقد كانت مقاومة النورسي قوية واثقة، وذلك في وقت اشتد فيه النشاط المحموم لحركة التغريب بحيث أذهلت كثيرين، وأحبطت كثيرين، وساقت في ركابها عددا من المهزومين من الداخل، من علماء الدين وأشباههم، بينما وقف النورسي شامخا مسلحا بالقرآن فكرا وأدبا ومنهجا، وذلك من خلال قدرة صناعية وعقلية خاصة أكرم الله بها النورسي !.

لقد كان النورسي واحدا من أولئك الذين تصدوا لهؤلاء المستغربين وكشف خباياهم، وقد خاطبهم قائلا : " إن تصوير الأباطيل تصويرا جيدا إضلال للأذهان الصافية " .... إنه نوع من نشر الفاحشة بواسطة الفن والأدب ... والفن والأدب بريئان من هذا الأسلوب .

وهو يفضح أساليبهم على نحو أوضح بأسلوب بالغ السخرية .... يقول :

"لقد وضع "الظلم على رأسه قلنسوة العدالة، ولبست الخيانة رداء الحمية، وأطلق على الجهاد اسم البغي، وعلى الأسر اسم الحرية، وهكذا تبادلت الأضداد صورها "[1].

وإذا تركت الأمة عقول أبنائها ووجدانهم مستباحة لدى الآخرين، ليبثوا فيها سمومهم بحجة حرية الثقافة، وحرية المعلومات، حرية الاختيار، وخصوصا لدى النشء الجديد الذي لا حصانة لديه ولا معرفة له بأساليب الآخرين، فالنتيجة ستكون وخيمة، والكارثة ستكون فادحة.

وقد فند النورسي هذه التيارات الأدبية المبطنة بالفكر العربي بعشرات المقالات والمباحث الباهرة التي كان يقارن فيها بين المدنية الغربية المادية، والمدنية الإسلامية التي تسد حاجات الإنسان المادية، وترضى أشواقه الروحية، وذلك على العكس من أسس المدنية المعاصرة !!!

---

[1] الكتوبات ص ٦٠١.

ويقول الأستاذ النورسي في (المثنوي العربي النوري) لأولئك الأتراك المسلمين المستغربين :

" إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق، وأكثر الفلاسفة في الغرب، رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقومه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة [1].

ويهاجم ذلك التيار البدعي المترشح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية، ويبشر باضمحلال ذلك التيار الذي سوف تسفيه الرياح، وينبههم إلى أنه (ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي مع التهاون في الدين)[2].

وفي الوقت الذي يواجه فيه النورسي التيارات التركية المستغربة، يقف كذلك مدافعا عن (إسلامية الأدب) وعن رسالة العالمية ... قائلا للمنهزمين أمام التيارات الأدبية والفكرية الأوروبية [3].

" إن الحضارة الغربية صارت مغلوبة أمام إعجاز القرآن وحكمته وبلاغته وكذلك فإن الأدب الغربي صار مغلوباً أمام الأدب الإسلامي وبلاغة القرآن، إن منزلة الأدب الغربي بالنسبة للأدب القرآني كبكاء يتيم بحزن مظلم خال من الأمل، أو كعويل وغناء سكير بالنسبة إلى غناء عاشق، لأن الأدب والبلاغة باعتبار تأثير أسلوبهما؛ إما ينتج الحزن أو الفرح. والحزن ينقسم إلى قسمين :

- الأول: في فقد الأحباب، وهذا الحزن مظلم ومحطم للأمل، وفيه ضلالة وغفلة وعبادة للطبيعة، وهذا ما أنتجه الأدب الغربي الحضاري من الحزن.

---

(1) المثنوي العربي النوري ٢٠١.

(2) المثنوي العربي النوري ٢٠٢.

(3) الكلمات ٤٧٦.

• الثاني : الحزن لفراق الأحباب؛ بمعنى أن الأحباب موجودون، ولكن ينشأ الحزن من فراقهم وذلك شوقا لهم، وهذا الحزن يعطي للبشر الهداية والنور وهذا هو الحزن الذي يعطية القرآن الكريم.

أما الفرح فهو أيضا على قسمين :

الأول : يشوق النفس إلى الحب؛ وهذه هي الحضارة الغربية المتمثلة في السينما والرواية (أمثال أفلام اليوم)

الثاني : الفرح الذي يهدئ النفس ويشوق الروح والقلب إلى الوطن الأصلي (الجنة) والمقر الأبدي والوصول إلى الأحباب الآخرين؛ تشويقا مؤدباً معصوماً، وهذا الفرح الذي يشوق الإنسان إلى الجنة والسعادة الأبدية ورؤية جمال الله هو الفرح الذي يعطية القرآن العظيم للبشر[1].

- إنه أدب متعامل مع الله العظيم، ومع الكون الفسيح، ومع الدنيا والآخرة

- أما الأدب الأوروبي فمجاله الفاني والحس والقوة الظالمة ...

يقول النورسي :

إن الأدب الأوروبي لا ينعم بالاحترام والإجلال مثلما ينعم به القرآن الكريم، ولا يمكن أن يجعل ميزانه مقياسا للأدب القرآني، إن للأدب ثلاث ساحات يجول فيها ولا يمكن أن يجول خارج هذه الساحات وهي (العشق والحسن) أو (البطولة والبسالة) أو (تصوير الحقيقة)

وإن الأدب الغربي من ناحية البطولة لا يتمسك بالحق بل يؤيد الظلم ويعلم القوة بدلا من الحق.

---

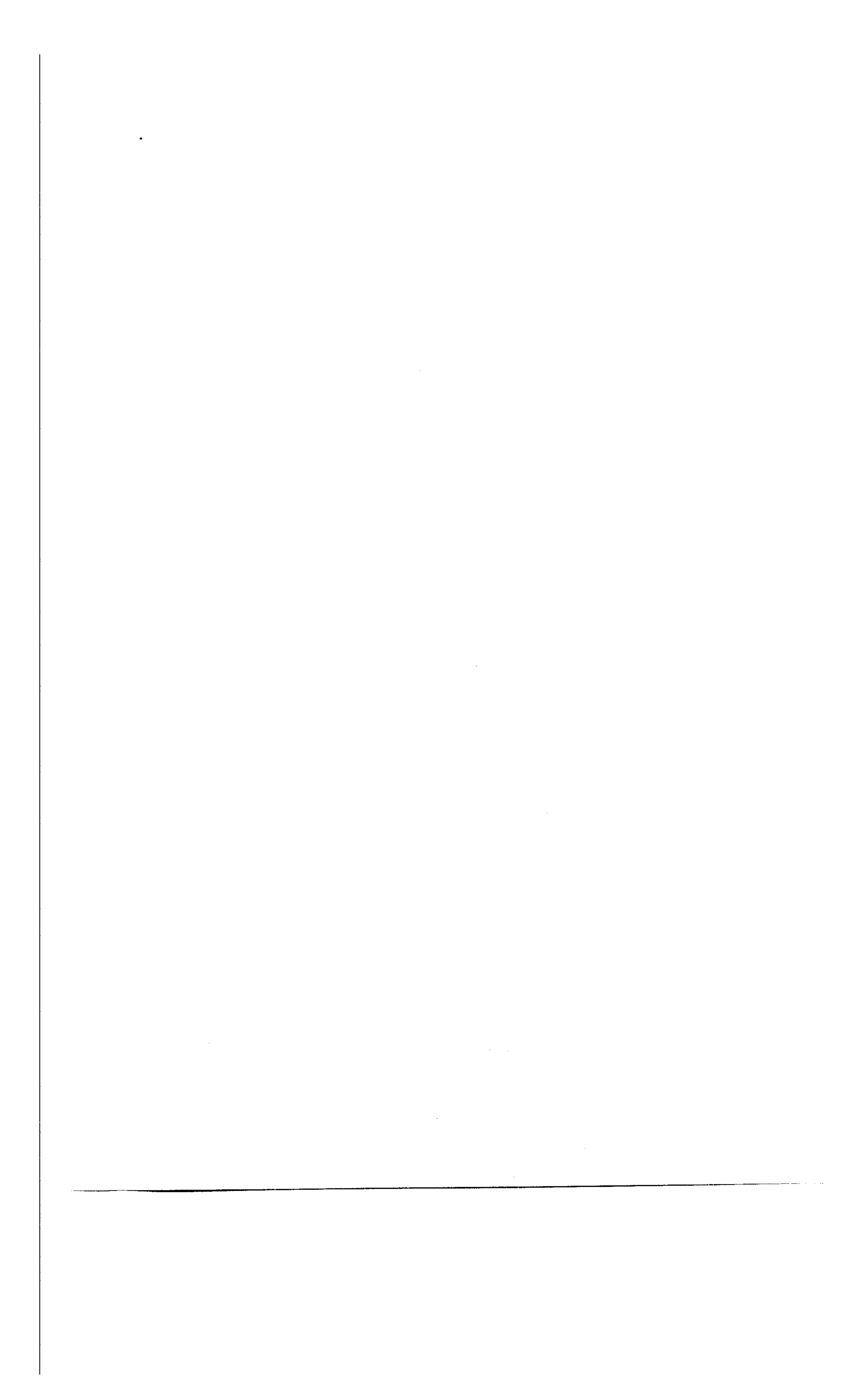
[1] الكلمات ٤٧٦، ٤٧٧وأنظر : د. سمير رجب محمد : بديع الزمان سعيد النورسي ص ٩٧ ، ط٢ ، ١٩٩٥ – ١٤١٦، شركة سوزلر للنشر ، فرع القاهرة.

ومـن ناحـية الحسـن والعشـق لا يعـرف العشـق الحقيقـي بـل هـو يثيـر الشـهوات فـي نفـوس البشـر ولا ينظـر إلـى الكـون بنظـرة العبـرة ولا يصـبغه بصـبغة إلهـية، ولهـذا الأدب طـريق واحـد وهـو الـرواية و(الحـي المـيت) أي الكـتاب، والأمـوات المتحركة أي السينما ولا يمكن أن يعطي الميت الحياة ...

وهـذا الأدب قـد جعـل فـي فـم البشـر لسـان الكـذب ، وفـي وجهـة عـين الفسـق وألبس الدنيا لباس الرذيلة فلا يعرف الحسن المجرد [1].



[1] الكلمات ، ٤٧٧ ، المرجع السابق ص٩٨ (نقلا عن ٦٨٧ – ٦٨٠ Sözlar)



من نمــاذج عالمية الأدب الإسلامي

عنــــد النــورسي

ننتقل مع النورسي إلى المحصلة النهائية لرحلته مع الأدب ...

فبعد رفضه للآداب الأوروبية وفضح أسسها وبيان طبيعة بنائها الفكري وأهدافها اللادينية، وبعد رفضه للتيارات الأدبية التركية وغير التركية في المحيط الإسلامي، التي تعتمد على التيارات الأوروبية وتسعى إلى أن تكون مجرد رشح لها، ومتأوربة مثلها، دون غربلة أو تمحيص أو مراعاة لطبيعة الإنسان الشرقي المسلم وبيئته مهبط الرسالات السماوية.

بعد هذا كله يصرح النورسي بأنه لا بديل للمسلمين – ولا لغير المسلمين – من الأدب الإسلامي القائم على الأسس العقيدية والفكرية الإنسانية الربانية، والسعي إلى أهداف سامية تليق بالإنسان، والذي يعتمد آليات وأجناساً تقوم على الصدق والوضوح والارتفاع بالنفس الإنسانية والوجدان وتهذيبهما وصولا بهما إلى الانسجام مع الكون الذي يسبح كله بحمده سبحانه وتعالي ... إن هذا الأدب الإسلامي الملتزم هو – وحده – الأدب الذي يمثل الإيمان والوجدان اللذين يعدان قلب الحضارات، كما يمثل العلم بمنجزاته المتعددة عقل الحضارات، والمادة بثقلها وضغطها تمثل جسد الحضارة.

وعلي النقيض من تأثير هذا الأدب الإسلامي، تتوارى وتختفي في عصور الهيام بالمادة وهيمنتها على العقل والوجدان بواعث الإيمان ومظاهره في النفس والمجتمع، ويصبح العقل خادماً لا سيدا ...

وفي ظل فلسفة المادة هذه يتخلى الإيمان والعقل عن دورهما الهام في قيادة النفس والمجتمع، والسيطرة على ميادين الحياة بعدما أضحت الحياة نفسها (مأساة وملهاة) حين أمسكت فلسفة المادة بكل الخيوط، وأضحت مفاهيمها هي التي توجه مسيرة الحياة والأحياء.

وتلك هي معاناة مدنية الغرب التي بدأت تتآكل من داخلها بجرائم الوضاعة والمعصية والكوكايين والهيروين والإيدز [١].

وفي مقابل الرؤية المادية الجزئية لرسالة الأدب – كانت واقعية الإسلام العظيم – وعالميته أيضا – حين جمع في منهجه بين الدنيا والآخرة، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والمادة والروح، والملك والملكوت، والعقل والقلب، والسيف والقلم، والحرية والانضباط، والفن والأدب والالتزام الداخلي ... وهو تكامل لا يصلح الوجود الإنساني إلا به، ولا ترتقي الحياة وتزداد بدونه، حتى لا يطغى جانب على آخر، ولا يشبع جانب ويجوع الآخر، فيتم التركيز على الأدب والفن والوجدان، ويهمل العقل أو المادة ..لكن بهذا التكامل يتوازن الإنسان مع ذاته أولا، ومع البيئة من حوله، ومع الوجود كله باعتباره جزءا من هذا الوجود وعنصرا من عناصره المؤثرة فيه والمتأثرة به [٢].

ويلفت بديع الزمان سعيد النورسي نظرنا بشدة إلى هذه الحقيقة فيقول :

" إن الذين يبحثون عن كل شيء في المادة عقولهم في عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات " بينما قد يمزج النورسي في رؤيته بين جمال الفكر وروعته، وبين متع الحياة ولذاتها في داخل النفس، وهو الجانب الذي يقوم الأدب الإسلامي بتحقيقه من خلال استخدامه لأجناس الأدب ورؤيته الجمالية ولنورانيته التي تجمع بين عمق الرؤية الإسلامية وبين شروط الأدب التي لا خلاف حولها.

يقول النورسي :

---

(١) إبراهيم أبو محمد ص ٥٦ سوزلر القاهرة ط١ سنة ٢٠٠٢.

(٢) المكان السابق .

"من أحسن رؤيته جَمُل فكره، ومن جَمُل فكره تمتع بالحياة والتذ بها " [1].
والنورسي هنا – كما يقول الدكتور كمال أبو محمد – قد جمع وأبرز القيمة والرؤية المعنوية التي يحققها الأدب الصحيح وهي إحسان الرؤية للأشياء، فالأشياء في حد ذاتها مادية، ولكن النظرة إليها بعين المسلم والفنان تضفي عليها بعدا آخر، وحسا جديدا، ما كان الوجدان يستشعره ويحسه به لولا إحسان الرؤية، وإحسان الرؤية هنا مبعثه النظر إلى فلسفة الأشياء لا إلى الأشياء نفسها، فالصور الجامدة لا تبقى جامدة في تصور الذين ينظرون إليها نظرة تفكر وتأمل، وإنما تبدو خلفها حكمة عليا، وإرادة تتسم بالدقة والإحكام، وعلم يحيط بالأشياء من كل جانب، ويلحظ الرابط القوي بين النسب والأحجام والكتل والأوزان [2].

ومن هنا كانت رؤية النورسي لوظيفة الأدب، في إطار إنسانية إسلامية – رؤية قادرة على توجيه الأدب وجهه عالمية إيجابية بناءة تقود إلى الخير العام والانسجام الإنساني.

لقد فهم تلامذة بديع الزمان المباشرون من طلاب النور هذا التوظيف النورسي للأدب، فلهذا أشاروا إليه في مقدمتهم لبعض منظومات النورسي (اللوامع) التي تشبه الشعر وتأخذ بعض قوالبه، وما هو بالشعر، وما قصد هو أن تكون شعرا، وإنما أرادها خواطر تأخذ أجمل ما في الشعر وأجمل ما في النثر.

لقد ذكر تلامذته (صنغور، ومحمد فيضي، وخسرو) أن هذا الديوان الموسوم (باللوامع) لا يجري مجرى الدواوين الأخرى على نمط واحد متناولا

---

(1) المكان السابق.

(2) ابراهيم أبو محمد : المرجع السابق ٥٩، ٦٠.

عددا من المواضيع، ذلك لأنه كتب على أسلوب النثر أو على ذلك أنه لا يجنح إلى الخيالات والانطلاق من أحاسيس غير موزونة كما هو في سائر الدواوين فلا يضم هذا الديوان؛ بين دفتيه إلا ما هو موزون بميزان المنطق وحقائق القرآن والإيمان.

ولقد اقتدى أستاذنا واستفاض من نور " وما علمناه الشعر " فما كان له ميل إلى النظم والشعر ولم يشغل نفسه بهما أبدا، وقد تم تأليف هذا الديوان الشبيه بالمنظوم خلال عشرين يوما ومع وروده فطريا وطبعه كما ورد دون أن يطرأ عليه تصحيح أو تشذيب أو تدقيق يجعلنا نراه خارقة من خوارق رسائل النور؛ فلا نعلم ديوان شعر مثل هذا يسهل قراءته نثرا دون تكلف.

في مقدمة الديوان وتحت عنوان (تنبيه) يؤكد النورسي رؤيته للشعر المنضبط بالإسلام فيقول : " ولم أشأ قط تغيير صورة الحقيقة لتوافق أهواء القافية نظير التضحية (بصافية) فداء القافية {وهي قصة امرأة تركية طلقها زوجها لتستقيم له القافية } ولأجل هذا فقد ألبست أسمى الحقائق أردأ الملابس في هذا الكتاب الحالي من القافية والنظم وذلك :

أولا : لأنني لا أعلم أفضل من هذا. فكنت أحصر فكري في المعنى وحده، دون اللفظ.

ثانيا : أردت أن أبين بهذا الأسلوب نقدي لأولئك الشعراء الذين ينحتون الجسد ليوافق اللباس.

ثالثا : أردت إشغال النفس أيضا بالحقائق العالية مع انشغال القلب بها في هذا الشهر المبارك شهر رمضان.

وعن الأسلوب الشعري في رسائل النور، يقول شريف ماردين : إن اللهجة الأدبية لبديع الزمان تنطوي على أسلوب إيماني غني بالمجازات، لذا فهذا الأسلوب المغلق الذي يهز المشاعر اكتسب قوة ساحرة.

ويشبه " جميل مريج " رسائل النور بالريح العاصفة. أما سزائى قراقوج عندما يؤكد علي تأثير هذه المؤلفات بإيقاعات كلماتها وأسلوبها يقول : إن رسائل النور هي كليات ثقافة إسلامية وحدها. وهاتان جملتان من رسائل النور: إن الفكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن الفرد الواحد سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد – فحينما تستلم الأمر الواحد – الصادر من آمرها الأحد، تهب منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق - عند قيامه للسماع – فتكون وسيلة لحصول المواسم الأربعة.

ثم إن الإيمان قد بصرني بعلم اليقين إن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. إنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي – التي هي أهل للحياة الأبدية ومرشحة للسعادة الأبدية – من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتماد [١].

لقد رفض النورسي أن يكون خياله الشعري خيالا هائما جامحا.

وكأن النورسي عندما ألزم نفسه هذا المنهاج في الشعر أو في النثر الفني الذي يتشبه بالشعر – إنما أراد أن يقدم لنا خلاصة رؤيته للأدب الإسلامي الذي يجب أن تكون رسالته عالمية وإنسانية، معبرة عن المفاهيم القرآنية وغاياتها ... وكأنه – أيضا – يقول للشعراء المسلمين : هكذا يجب أن يكون الشعر الذي

---

[١] محسن قالقيشيم : الميزة الشعرية لرسائل النور – المؤتمر العالمي – بديع الزمان سعيد النورسي من ٢٤- ٢٦/ ٩/ ١٩٩٥، ص٦٨٤-٦٨٥.

ينتسب إلى الإسلام ... وهكذا يجب أن يكون الخيال الإسلامي ... فحتى وهو في قمة جنوحه وعطائه الخيالي يجب أن يستشعر رسالته ومسئوليته، ولا يهيم في واد بدون ضوابط أو أهداف ... ويقول مالا يمكن فعله ...أو ما لا يرضى أن يفعله .

۞ ۞ ۞

نماذج من أدب النورسي

يعالج النورسي كثيرا من القضايا الوثيقة الصلة بالعقيدة، أو بالرؤية الإسلامية للإنسان والحياة أو الكون بأسلوب أدبي بديع يعلمنا من خلاله كيف نجعل الأدب – بأساليبه البيانية الرائعة – أخا شقيقا للعلوم والحقائق، وليس عالماً هائما جانحا منفصلا عنها أو مضادا لها.

إن بيان النورسي وأساليب عرضه تملك كل كياننا فهي – مع أنها أدب – تدخل إلى عقولنا، ومع أنها (عقل وعلم) تدخل إلى قلوبنا ووجداننا ... فالأدب والعلم والوجدان والعقل، كلها تعمل معا وبتعاون وانسجام في رسائل النور.

وإذا أردت أن تقوم بدراسة أدبية لكل تراث النورسي، فسوف تجد شواهد من كل تراثه.. عبر كل رسائل النور، وأيضا إذا أردت أن تقوم بدراسة عقلية، فسوف تجد تراثه يتجلى أمامك غاية في الانسجام مع العقل الرشيد والفطرة السليمة.

وليس إلا القرآن الكريم الذي عاش له – وفيه – بديع زمان النورسي ومحققا لهذا المزج بين البيان والأدب ، والحقائق والعقل في نسيج واحد.

إن الأساليب تقدم في أوفى صورها ، لكنها لا تقدم لذاتها ، ولا تقدم بطريقة متكلفة يظهر عليها قصد الصنعة، بل تقدم لتكون ملائمة تماما للمعاني ، مفصلة عليها ، كما تفصل الأثواب على الأجساد بالدقة المتناهية الممكنة .

النموذج الأول : حديثة عن القرآن الكريم

من القرآن الكريم الخارق المعجز استقت رسائل النور أسلوبها، كما يستقي التفسير والشرح من المتن لكنها – وإن أصر بعضهم على القول بأنها تفسير للقرآن – لم تكن – في رأينا كذلك، بل كانت قبسا من روح القرآن ... واستلهاما من بيانه، وحياة في عالمه ... فهي قبس من قبسات التنزيل، ونور من نور الذكر الحكيم ... ونفحة من نفحات الحياة القرآنية المتجردة المؤمنة ...

لقد عاش النورسي حكم الإعجاز في بلاغة القرآن، وبذل جهدا كبيرا في معرفة نواحيه البلاغية المعجزة منطلقا من الرؤية التراثية مكملا لها ومضيفاً إليها.

وقد ذكر النورسي أن الإعجاز في بلاغة القرآن يوجد في خمس نقاط :

أولاها : إن في نظم القرآن جزالة خارقة، فكلماته كعقارب الساعة العادة للثواني والدقائق والساعات يكمل كل منها نظام الآخر [١]. وثانيتها : البلاغة الخارقة في معناه[٢]. فمعانيه في القمة من القوة وسمو الفائدة ورصانة البلاغة، وثالثتهما: الإبداع الخارق في أسلوبه [٣]. رابعتها : الفصاحة الخارقة في لفظه [٤]. وخامستها: براعة البيان القرآني متانة وتفوقا وهيبة[٥].

---

(١) الكلمات : ٤٢٦ نشر سوزلر – تركيا – ط ٣/ ١٤١٩- إحسان قاسم الصالحي.

(٢) الكلمات ٤٢٩.

(٣) الكلمات ٤٣١

(٤) الكلمات ٤٣٦. الكلمات ٤٣٩.

(٥) الكلمات ٤٣٩.

أما جامعية القرآن الخارقة، فقد أبصرها حس النورسي ووجدانه وعقلة في خمس لمعات: أولاها الجامعية الخارقة في لفظه [1]. فلكل كلام ولكل كلمة، ولكل حرف، ولكل حركة أو سكون، وجوها كثيرة تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة ...، وثانيتها : الجامعية الخارقة في معانية [2]. فخزينة معاني القرآن الجليلة مصادر لجميع المجتهدين، وثالثتها : الجامعية الخارقة في عمله [3]. ففي القرآن علوم لا تحد ولا تعد ... ورابعتها : الجامعية الخارقة في مباحثه [4]. فقد جمع القرآن المباحث الكلية عن الإنسان والكون والخالق والماضي والحاضر والمستقبل، والدنيا والآخرة، وما في الدنيا، وما في الآخرة، وخامسها: الجامعية الخارقة في أسلوبه وإيجازه [5]. فلأسلوب القرآن خزائن متعددة متكاملة من المعاني، وله جامعية تشير إلى أنواع المعارف الحقيقية والحاجات (البشرية) وفي القرآن إيجاز معجز، ففي كلمة واحدة براهين كثيرة، ترد صراحة وإشارة ورمزا، وفي القرآن إيجاز جامع، بحيث إن مثالا جزئيا في حادثة خاصة يمنحنا دساتير كلية وقوانين عامة، وفي القرآن جامعية خارقة في مقاصده ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه.

... إن هذا الفقه النورسي العميق لجوانب البلاغة والإعجاز في القرآن مضافا إليه الممارسة العملية والفكرية للحياة القرآنية التي أمر الله المسلمين بها

---

[1] الكلمات ٤٥١.

[2] الكلمات ٤٥٧.

[3] الكلمات ٤٥٧-

[4] الكلمات ٤٥٧- ٤٥٨.

[5] الكلمات ٤٥٩- ٤٦٦.

عندما قال لهم في القرآن الكريم : " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم "[1].

.... هذا الفقه العميق وهذه الحياة العملية هما الأداتان اللتان حققتا لبديع الزمان هذه القدرة البيانية العجيبة، فجاءت رسائل النور في أسلوب بلاغي تصويري أدبي معبرا عن الحقائق بكل دقة كأنه تنزيل من التنزيل وفيض من روح القرآن المبين.

وجاءت – كذلك – خطابا لكل الناس للمسلمين وغير المسلمين.

وفي ضوء هذا المنهاج في المزج بين الأدب والحقائق، والعقل والقلب قد تكلم النورسي عن إعجاز القرآن البياني والبلاغي مستلهما ما قدمه الأسلاف مضيفاً إليه ألوانا أخرى من الإعجاز، مثل : الإعجاز العلمي والغيبي والتشريعي فكأنه – بهذا البيان – قد قدم المعجزة القرآنية للعالم، وأقام عليها الحجة، وبين لها أن في كل كلمة قرآنية حجة على العقل الإنساني، فكيف بكل جملة، وكل آية، وكل سورة. كما بين أن كل سورة – أو آية – ترشح بالإعجاز القرآني كله، فهي وحدها – لو تعمق فيها العقل الإنساني بموضوعية – دليل قائم بذاته على ربانية القرآن وإعجازه، وحجيته على العالم كله.

إن النورسي يقدم للإنسان مفهومه – أو تعريفه للقرآن – من خلال سؤال يضعه هو، قائلا فيه :

القرآن ما هو ؟ وما تعريفه ؟

ثم يجيب على السؤال بقوله : القرآن هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير، والترجمان الأدبي لألسنتها المتنوعة التالية للآيات التكوينية ... ومفسر

---

[1] سورة الأنفال : آية ٢٤.

كتاب عالم الغيب والشهادة ... وكذا هو كشاف لمخفيات الكنوز المعنوية للسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض. . وكذا مفتاح لحقائق الشئون المضمرة في سطور الحادثات ... وكذا هو لسان عالم الغيب في عالم الشهادة ... وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا... وكذا هو شمس عالم الإسلام المعنوية ، وأساسه وهندسته .. وكذا هو خريطة مقدسة للعوالم الأخروية ... وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشئونه ... وكذا هو المربي لهذا العالم الإنساني... وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى. وكذا هو الحكمة الحقيقة لنوع البشر.. وهو المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة ... وكذا هو للأنسان: كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر..

وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية حتى إنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولملك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره ولمساق ذلك المسلك وتصويره.. فهذا الكتاب السماوي أشبه مايكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب.

إنه كلام الله بوصفه رب العلمين،وهو أمر الله بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السماوات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطاب أزلي باسم السلطنة الإلهية الشاملة العظمى. وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني النابع من رحمته الواسعة المحيطة لكل شيء – وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية - إذ بدايات بعضها رموز وشفرات – وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة.

والقرآن الكريم كتاب سماوي يتضمن إجمالاً، كتب جميع الأنبياء المختلفة عصورهم، ورسائل جميع الأولياء المختلفة مشاربهم، وآثار جميع الأصفياء المختلفة مسالكهم... جهاته الست مشرقة ، ساطعة ، نقية من ظلمات الأوهام ، طاهرة من شائبة الشبهات، إذ نقطة استناده: الوحي السماوي والكلام الأزلي باليقين. . هدفه وغايته : السعادة الأبدية بالمشاهدة. .محتواه : هداية خالصة بالبداهة. .أعلاه : أنوار الإيمان بالضرورة. . أسفله : الدليل والبرهان بعلم اليقين. . يمينه : تسليم القلب والوجدان بالتجربة. . يساره : تسخير العقل والإذعان بعين اليقين. . ثمرته : رحمة الرحمن ودار الجنان بحق اليقين.

ومع أننا لا نستطيع أن نزعم أننا أحطنا بكل ما كتب عن القرآن إلا أننا نستطيع القول: إن هذا التعريف للحقيقة القرآنية. وفي هذا السطور القلية – يعد أجمع وأقوى ما وصلنا إليه، وهو تعريف مزج بين العلم والأدب والفكر والوجدان ... وقد رشحت بهذا التعريف صفحات رسائل النور.

والحق أن رسائل النور كلها في بنيتها الأساسية تعد حجة معاصرة مقتبسة من حجة الله الخالدة البالغة (القرآن).

فهذه الرسائل المقتبسة من القرآن والتي ظهرت في العصر بواسطة بديع الزمان الزاهد الضعيف الفقير المخلص هي بحق حجة قرآنية عصرية على العقل الحديث المتمرد المسلح بالعلم – حسب زعمه – والمسلح بأسلحة الفلسفات العاجزة القاصرة – في الحقيقة.

ولعل هذا العقل لو تسلح بالعلم وحده بعيداً عن غبش الفلسفات لوصل إلى الحق، ولأسلم عنان قيادته للقرآن الكريم.

ولسوف يبقى القرآن كلمة الله التي تعطي لكل العصور حاجتها المحققة لإنسانيتها والملائمة لفطرتها. . وتقيم عليها – كذلك – الحجة العقلية والبيانية

كـي لا ويكـون للـناس علـى الله حجـة نقلـية أو العقلـية يـتقدمون بهـا بـين يديـه سـبحانه يـوم الحسـاب ... وكـي لا تكـون لهـم شـبهة أمـام طغـيان علـوم الجـدل والكـلام وأساليب الإلحاد والشرك الملتوية الكثيرة.

ولسـوف يقـوم فـي كـل قـرن مـن يعـود إلـى القـرآن عـودة سـعيد النورسـي. . مقدماً سعيداً جديداً.

وحسـبنا هـذا ... فـي الإشـارة إلـى المعجـزة القـرآنية العظمـى كمـا قدمـتها لعصرنا رسائل النور

النموذج الثاني : حديثه عن محمد الرسول والرسالة :

ونقـدم نمـوذجاً آخـر. . مـن نمـاذج الأدب العالمـي والإنسـاني الـرفيع الـذي قدمـته رسـائل الـنور بأرقـى بـيان، وأصـفى فكـر، وأجلـى حقـيقة، وأعـذب أسـلوب وأجمل تصوير.

إنــه نمـوذج النبـي الأعظـم محمـد بـن عـبد الله، علـيه الصـلاة والسـلام الـذي أرسـله الله بالقـرآن، وهـيأه لـيكون القـرآن العملـي الـذي يبصـره عـالم الجـن وعـالم الإنسـان. لـيكون حجـته علـى الأحـياء – جامعـا لكـل مـا جـاء بـه المرسـلون – إلـى يـوم القـيامة، فهـو العاقـب والخـاتم، ولا نبـي بعـده، ولهـذا لـزم أن يكـون حجـة كبـرى متألفة في كل جزئية وكلية من حياته على كل البشرية.

انظـر – أو اقـرأ – ببصـرك وبصـيرتك. . مـا تكتـبه رسـائل الـنور عـن هـذا النبي الأعظم.

إنهـا تجـيب علـى سـؤال تضـعه علـى لسـان المسـتفهمين الأبـرياء أو غيـر الأبرياء – عن حقيقة هذا النبي فتقول لهم. . ولكل إنسان. .

إن هـذا النبـي تصـدقه الـدلائل الآفاقـية، وتصـدقه مـئات مـن معجـزاته مـن أمـثال شـق القمـر، وشـبع الكثيـر مـن طعامـه القلـيل، وهـو كالشـمس يـدل علـى ذاتـه، فتصـدقه الـدلائل النفسـية، وهـو مجمـع أعالـي الأخـلاق الحمـيدة، وأفاضـل جمـيع السـجايا الغالـية والخصـائل النـزيهة، وكـذلك قـوة إيمانـية بشـهادة قـوة زهـده وقـوة تقواه، وقوة بمعبوديته، وكمال وثوقه بشهادة سيره، وكمال جديته وكمال متانته.

ولكن كيف يـمكن التأكيد من كل هذا ؟

إن الرسائل تجيب عن هذا السؤال ... وتقول :

اعلـم أن للمحـيط الزمانـي والمكانـي تأثيـراً عظـيماً فـي محاكـات العقـول، فـإن شـئت فـتعال لـنذهب إلـى خيـر القـرون وعصـر السـعادة النـبوية لنحظـى بـزيارته الكـريمة – صـلى الله علـيه وسـلم ولـو بالخـيال – وهـو علـى رأس وظيفـته يعمـل فافـتح عينـيك وانظـر فـإن أول مـا يظهـر لـنا مـن هـذه المملكـة شـخص خـارق، لـه حسـن صـورة فائقـة فـي حسـن صـورة رائقـة. فهـا هـو أخـذ بـيده كـتاباً معجـزاً كـريماً، وبلسـانه خطابـاً موجـزاً حكـيماً يـبلغ خطـبه أزلـية ويـتلوها علـى جمـيع بنـي آدم، بـل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات

وهنا تتعرض الرسائل للإجابة عن سؤال آخر متوقع :

فيا للعجب ؟ ما يقول ؟

نعـم إنـه يقـول عـن أمـر جسـيم، ويـبحث عـن نـبأ عظـيم إذ يشـرح ويحـل اللغـز العجـيب فـي سـر خلقـة العـالم، ويفـتح ويكشـف الطلسـم المغلـق فـي سـر حكمـة الكائـنات، ويوضـح ويـبحث عـن الأسـئلة الـثلاثة المعضـلة التـي شـغلت العقـول وأوقعتها في الحيرة ، إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي :

من أنت ؟

ومن أين ؟

وإلى أين ؟

وهو عليه السلام – لا يجيب بكلمات مثل كلمات الفلاسفة، بل هو يجعل الكلمات أفعالاً وحياة وتغييراً للعالم الإنساني :

انظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نواراً، ومن الحق نوراً مضيئاً، حتى صير ليل البشر نهاراً، وشتاءه ربيعاً، فكأن الكائنات تبدله شكلها فصار العالم ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً ... فإذا ما نظرت إلى الكائنات خارج نور إرشاده، ترى في الكائنات مأتماً عمومياً، وترى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضها بعضاً

فهل نجح هذا المبعوث رحمة للعالمين في تغيير التاريخ.

تقول رسائل النور : تذكر العلم قبل الإسلام . لقد كان مأتماً كبيراً وسجنا للعقل والقلب وللضعف وللحيرة.

فانظر . قد تبدل شكل العالم، فتحول بيت المأتم العمومي مسجد الذكر والفكر ومجلس الجذبة والشكر وتحول الأعداء الأجانب من الموجودات أحباباً وإخواناً، وتحول كل من جامداتها الميتة الصامتة حياً مؤنساً مأموراً مسخراً ناطقاً بلسان حاله آيات خالقه، وتحول ذوو الحياة منها – الأيتام الباكون الشاكون – ذاكرين في تسبيحاتهم شاكرين لتسريحهم عن وظائفهم.

لقد تحولت بذلك النور حركات الكائنات وتنوعها وتغيراتها من العبثية والتفاهة وملعبه المصادفة إلى مكاتيب ربانية، وصحائف آيات كونية، ومرايا أسماء إلهية، حتى ترقي العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية.

وانظر إلى الإنسان كيف يرتقي من حضيض الحيوانية الذي هوى إليه بعجزه وفقره وبعقله الناقل لأحزان الماضي ومخاوف المستقبل، لقد ترقي إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل وتخلص من العجز والفقر، فانظر كيف صارت أسباب سقوطه من عجز وفقر وعقل – أسباب صعود بسبب تنورها بنور هذا الشخص النوراني عليه الصلاة والسلام.

فعلى هذا لو لم يوجد هذا الشخص لسقطت الكائنات والإنسان، وكل شيء إلى درجة العدم، لا قيمة ولا أهمية لها.

فإن قلت : من هذا الشخص الذي نراه قد صار شمسا للكون، كاشفا بدينه عن كمالات الكائنات ؟ ماذا يقول ؟

قيل لك : انظر واستمع إلى ما يقول : ها هو يخبر عن سعادة أبدية ويبشر بها، و يكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها، ويدعو الناس إليها، وهو دلال محاسن سلطنة الربوبية ونظارها، وكشاف مخفيات كنوز السماء الإلهية ويعرفها.

فانظر إليه من جهة وظيفته (رسالته) تراه برهان الحق وسراج الحقيقة وشمس الهداية ووسيلة السعادة.

ثم انظر إليه من جهة شخصيته (عبوديته) تراه مثال المحبة الرحمانية ومثال الربانية، وشرف الحقيقة الإنسانية وأنور أزهر ثمرات شجرة الخلقة.

وانظر أليست سلطنته على الظاهر فقط، بل ها هو يفتح القلوب ومعلم العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح.

فيا حسرة على الغافلين ! ويا خسارة على الضالين ، ويا عجبا من بلاهة أكثر الناس كيف تعاموا عن هذا الحق وتصاموا عن هذه الحقيقة ؟ لا يهتمون

بكلام هذا النبي الكريم – ﷺ - مع أن من شأن مثله بأن تفدى له الأرواح ويسرع إليه بترك الدنيا وما فيها ؟

واعلم أن هذا النبي محمد ﷺ المشهود لنا بشخصيته المعنوية، المشهور في العالم بشئونه العلوية، كما أنه برهان ناطق صادق على الوحدانية، ودليل حق بدرجة حقانية التوحيد، وكذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الأبدية ووسيلة وصولها، وكذلك بدعائه وعبوديته سبب وجود تلك السعادة الأبدية ووسيلة إيجادها.

فإن شئت فانظر إليه وهو في الصلاة الكبرى، التي بعظمتها وسعتها، حيرت هذه الجزيرة بل الأرض؛ فصلين بتلك الصلاة الكبرى [1].

ثم انظر لأي قصد وغاية يتضرع ؟

ها هو يدعو لمقصد لولا حصول ذلك المقصد لسقط الإنسان بل العالم، بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معني. وبمطلوبه تترقى الموجودات إلى مقامات كمالاتها ... ثم انظر كيف يتضرع باستمداد مديد في غياث شديد في استرحام بتودد حزين، بحيث يسمع العرش والسماوات ويهيج وجدها، حتى كأن العرش والسماوات تقول : آمين اللهم أمين [2].

فيا للعجب! ما يطلب هذا الذي قام على الأرض، وجمع خلفه جميع أفاضل بني آدم ورفع يديه متوجهاً إلى العرش الأعظم، يدعو دعاء يؤمن عليه الثقلان ويعلم من شئونه أنه شرف نوع الإنسان وفريد الكون والزمان، وفخر الكائنات

---

(١) الكلمات ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) الكلمات ٢٦٣

في كل آن، ويستشفع بجميع الأسماء القدسية الإلهية المتجلية في مرايا الموجودات ... فاستمع! ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضا.

فيا رفيقي في هذه السياحة العجيبة ألا يكفيك ما رأيت؟ فإن أردت الإحاطة فلا يمكن ، بل لو بقينا في هذه الجزيرة مائة سنة ما أحطنا ، ولا مللنا من النظر بجزء واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه وغرائب إجراءاته.

فلترجع القهقرى ولننظر عصرا عصرا، فكيف اخضرت تلك العصور واستفاضت من فيض هذا العصر ؟ نعم ترى كل عصر تمر عليه قد تفتحت أزاهيره بشمس عصر السعادة [1]. عصر النبوة الخاتمة عصر محمد عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الإنسانية. إلى يوم القيامة.

النموذج الثالث : حديثه عن الحرية

الحديث عن الحرية في الأدبيات المعاصرة الأوروبية أو المستغربة أو المستشرقة هو حديث لا ينقطع، وهو حديث عن (حرية) تبلغ حد الفوضى، تجعل الإنسان (الفرد) حتى لو كان يعيش تحت مظلة نظم شمولية أو اشتراكية أو عسكرية (حرا) في أية صورة من صور السقوط الأخلاقي، ما لم يحس المجتمع أو القانون ... فهو حر أن يمارس (الجنس) أو (الشذوذ) الجنسي أو يشرب الخمور، أو يعري أكبر مساحة من جسمه أو يختلط اختلاطا مشينا، أو يعلن كفره بالله وبالدين أو ينقاد لشهواته بأي شكل من الأشكال.

وهذا هو مفهوم الحرية الذي سيطر على العالم المعاصر، بتأثير التعاليم الصهيونية والليبرالية والماسونية الهادفة للقضاء على كل الأديان والأخلاق – كما تعلن عن ذلك صراحة وسائرها العقيدية والقانونية المعلنة وغير المعلنة!

---

[1] الكلمات ٢٦٢

إن هـذه الحـرية البهيمـية – فـي المفهـوم الأوربـي – مـن أهـم الفواصـل الأفارقة بين الإسلام وحضارته، وأوروبا المنسلخة من النصرانية وحضارتها.

وفـي مواجهـتها تقـف الحـرية الإسـلامية التـي يسـميها النورسـي فـي أدبـياته التـي تـرد فـي غيـر موضـع مـن رسـائل الـنور باسـم (الحـرية الشـرعية) أو (أدب القرآن) المعبر عن مفهوم الحرية في إطار الإسلام.

وحتـى فـي المسـتوي السياسـي ولـيس المسـتوى الاجتماعـي فقـط يـرفض النورسـي (الحـرية) فـي المفهـوم الأوروبـي ... حـرية المعاوضـات الثابـتة والجـرأة علـى تحـريم الحـلال وإباحـة الحـرام... وهـو لا يـرى إلا الشـرعية طـريقا فـي كـل المجالات.

يقول النورسي تحت عنوان :" الحرية الشرعية هي جنة الأمة الإسلامية)

أيـتها الحـرية الشـرعية ! إنـك تـنادين بصـوت هـادر، ولكـنه رخـيم بشـارة سـارة، توقظـين بهـا قـروياً بـدوياً مثلـي نائمـا تحـت طـبقات، ولـولاك لظللـت أنـا والأمـة جمـيعا فـي سـجن الأسـر والقـيد. فـإذا مـا اتخـذت الشـريعة هـي عـين الحـياة، منـبعا للحـياة، فإننـي أزف بشـرى سـارة أيضـا بـأن هـذه الأمـة المظلـومة سـتترقى ألـف درجة عما كانت عليه في سابق عهدها.

إن صـدي الحـرية والعدالـة يـنفخ نفـخ إسـرافيل، فيـبعث الحـياة فـي مشـاعرنا المدنـية وآمالـنا الخامـدة ورغباتـنا القومـية الـرفيعة وأخلاقـا الإسـلامية الحمـيدة، حتـى يرن صماخ الكرة الأرضية المجذوبة، ويهيج الأمة جميعا.

وإيـاكم يـا إخـوان الـوطن ! أن تقضـوا علـيها بالمـوت مـرة أخـرى بالسـفاهات والإهمال في الدين.

إن مائة ونيفا من السنين التي تأخرنا فيها عن مضمار الرقي والتقدم سنتجاوزها بإذن الله تعالى بمعجزة نبوية مستقلين – عملا – قطار القانون الأساسي الشرعي وممتطين – فكراً –براق الشورى الشرعية.

لا تفسروا الحرية تفسيرا سيئاً، كي لا تفلت من أيدكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر، ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة.

والبرهان الباهر على هذا الادعاء : هو ما كان يرفل به عهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من الحرية والعدالة والمساواة على الرغم من الوحشية السائدة والتحكم المقيت.

وبخلافه : فأن تفسير الحرية والعمل بها على أنها التحرر من القيود والانغمار في السفاهات والملذات غير المشروعة، والبذخ والإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء اتباعا لهوي النفس ... مماثل لمن يتحرر من أسر سلطان واحد، ويدخل في استبداد حقراء سافلين كثيرين، فضلا عن هذا النمط من الحرية يظهر أن الأمة غير راشدة، وما زالت في عهد الصبا، وليست أهلا للحرية، فهي سفيهة وتستحق الحجر عليها [1].

وتحت عنوان:**(النساء أضلت البشرية بخروجهن من بيوتهن فعليهن العودة إليها)** يحذر النورسي من هذه الحرية الأخلاقية الفوضوية ويبين سمو التشريعات الإسلامية في الحجاب واحترام البيت المسلم ويبين آثارها القاتلة على الفرد والمجتمع ... **يقول :**

لقد أطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن. وامتهنت كرامتهن وجعلتهن متاعا مبذولا.

---

[1] صيقل بالآلام ٤٦٧- ٤٦٩

بينما شرع الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن، فكرامتهن فيها وراحتهن في بيوتهن وحياتهن في دوام العائلة.

الطهر زينتهن. الخلق هيبتهن. العفة جمالهن. الأطفال لهوهن.

ولا تصمد إزاء جميع هذه الأسباب المفسدة إلا إرادة من حديد.

كلما دخلت حسناء في مجلس تسود فيه الأخوة، أثارت فيهم عروق الرياء والمنافسة والحسد والأنانية فتتنبه الأهواء الراقدة.

إن تكشف النساء تكشفا دون قيد أصبح سببا لتكشف أخلاق البشر السيئة وتناميها. هذه الصور التي هي جنائز مصغرة وأموات متبسمة، لها دور خطير جدا في الروح الرعناء الإنسان المتحضر، بل إن تأثيرها مخيف مرعب [1].

وحول رشح الآداب الأوروبية بهذه الحرية البهيمية ومقارنه هذه الآداب بالأدب القرآني السامي الذي يعجز الأدب الأوروبي عن الوصول إلى قمته، يقول النورسي : لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الأهواء والنزوات والدهاء شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدي والشفاء. إذ الحالة التي ترضي الأذواق الرفيعة للكاملين من الناس وتطمئنهم، لا تسر أصحاب الأهواء الصبيانية وذوي الطبائع السفيهة ولا تسليهم، فبناء على هذه الحكمة فإن ذوقا سفيها سافلا، ترعرع في حمأة الشهوة والنفسانية، لا يستلذ بالذوق الروحي، ولا يعرفه أصلا.

فالأدب الحاضر، المترشح من أدب أوروبا عاجز عن رؤية ما في القرآن من لطائف عالية ومزايا سامية، من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عن تذوقها لذا، لا يستطيع أن يجعل معياره محكا له.

والأدب يجول في ثلاثة ميادين دون أن يحيد عنها :

---

(١) الكلمات ٨٧٤

ميدان الحماسة والشهامة، وميدان الحسن والعشق، وميدان تصوير الحقيقة والواقع.

فالأدب الأجنبي في ميدان الحماسة لا ينشد الحق، بل يلقن شعور الامتنان بالقوة بتمجيده جور الظالمين وطغيانهم، وفي ميدان الحسن والعشق لا يعرف العشق الحقيقي، بل يفرز ذوقا شهويا عارما في النفوس، وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع لا ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهية. ولا يراها صبغة رحمانية بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ضوئها ولا يقدر على الفكاك منها، لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة حتى يمكن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منها بسهولة.

ثم إن ذلك الأدب المشوب بالسفه، لا يغني شيئا عن اضطرابات الروح وقلقها الناشئة من الضلالة والواردة منه أيضا، ولربما يهدئها وينميها ، وفي حسبانه أنه قد وجد حلا، وكأن العلاج الوحيد، هو رواياته، وهي : في كتاب ... ذلك الحي الميت، وفي سينما ... وهي أموات متحركة، وفي مسرح ... الذي تبعث فيه الأشباح وتخرج سراعا من تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي.

هذه هي أنواع رواياته، وأني للميت أن يهب الحياة.

وبلا خجل ولا حياء ! وضع الأدب الأجنبي لسانا كاذبا في فم البشر .... وركب عينا فاسقة في وجه الإنسان .... وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة.

ثم سمى الأدب الأجنبي غير الإسلامي كل ذلك أدبا حرا، أو فنا متحررا، أو فنا للفن، وهو كاذب في كل ذلك، فهو ليس فنا ولا أدبا ولا حرية، إنما حيوانية بهيمية تخلع على نفسها أردية لا تستحقها.

الفهرس